عبد الله إمام

ملف عبد الناصر

معركة المخابرات الأمريكية

المركز الثقافى الجامعى

عبدالله امام

ملف عبد الناصر

الطبعـــة الأولى ـ ينـــاير ١٩٧٨

النـاشر : المـركز الثـقافى الجـامعى

١٠ شارع الرشـيدي ـ القصر العينى

لم تتعرض تجربة فى العالم الحديث لحملة تشهير مخططة مثل ما تعرضت له التجربة الناصرية فى مصر ..

فلم تكد تمضى شهور قليلة على غياب عبد الناصر ، وتهدأ موجة الأحزان التى عمت الشعب العربى فى مصر ، وفى سائر الوطن العربى ، حتى خرج كثيرون من الجحور يعلنون انهم ما زالوا يعيشون ، ولأنهم عاشوا سنوات غرباء عن المجتمع ، بعيدين او مبتعدين عما يدور فيه ، حتى ولو كان بعضهم يتحرك بداخله ، فانهم لم يروا مما حققه عبد الناصر الا أنه تسبب فى الهزيمة العسكرية فى حرب ١٩٦٧ .

ومن البديهى ، ومن المنطقى ايضا ، أن تكون هذه الفئات بما تمثله رافضة لكل ما حدث فى مصر خلال سنوات الثورة ، وانها لم تجد فيه الا ما انتقص منها من امتيازات ومن أموال استردها الشعب المصرى ..

فموقف هؤلاء غير متناقض مع مصالحهم ، ولا مع أنفسهم ..

ولكن الغريب فى الأمر هم المرتدون ، الذين سبحوا بحمد عبد الناصر ، وبتجربته وبرزوا حتى أخطاءها ، ومدحوه زعيما .. وبكوه ميتا . شعرا ونثرا ، واستفادوا فى عصره .. ارتفعوا وحصلوا على مكانة رفيعة ، واحتلوا مناصب عالية ، وتبوأوا أعمالا ممتازة ، وحصل بعضهم على أوسمة أحيانا وأجور سخية فى كل الأحيان .. وأصبح منهم الوزير ، والمحافظ ، والكاتب الذى حصل على جوائز ، وأموال يصعب حصرها ، والصحفى

الذى منح فرصا ليكفر عن خطاياته وجرائمه فى حق الشعب ، فزاد من جرائمه وتحولت أخطاؤه الى خطيئة وخيانة ..

نماذج لا حصر لها من المرتدين ، والذين تصوروا أن تحويل الدفة وتغييرها يمكن أن يحقق لهم فوائد أكبر ، ومغانم أكثر حتى وان كان الناس لم ينسوا مواقفهم القديمة .. فماذا يهم رجل باع شرف الكلمة الذى هو شرف الانسان أكثر من مرة .. وفى كل سوق .

هؤلاء جميعا خرجوا بطريقة ــ لا أتصور أنها عشوائية ــ ليهيلوا التراب على تجربة عبد الناصر ، ويحولوا ايجابياتها الى سلبيات ، أما السلبيات وهى موجودة فعلا ، فقد جسدوها بحيث أصبحت هى الشكل البارز الذى غطى كل مصر فى تلك الفترة التى ارتفعت فيها مكانتها وسمعتها ، واستردت كرامتها وأصبح لها كيان بين دول العالم أجمع ، وتبوأت مركز القيادة فى دول العالم الثالث ، واستردت مكانتها الطليعية الرائدة بالنسبة للوطن العربى ..

حملة القماقم :

هذه السنوات المجيدة انهالت عليها الأقلام ، وفق مخطط غريب ، ومريب ، ومرسوم ، لتصفها بأنها سنوات الهوان ، والعار ، والهزيمة ، أو سنوات عصيبة أو انها كابوس جثم على صدر مصر .. وغيرها من الصفات التى لم تصبح موضع احترام داخل مصر ، ولا داخل العالم العربى ..

ومن الغريب أن المصرى عندما يسافر الى كثير من البلاد العربية يواجه بأسئلة حرجة . كيف تتهالون بهذا الشكل اللا اخلاقى على جزء من تاريخكم .. أطلت مصر به علينا ، وازداد حبنا وعشقنا لمصر من خلاله ..

وليس من مصلحة أحد تشويه جزء من تاريخ العالم العربى ، وانما من المصلحة تقييم التجربة بايجابياتها ، وسلبياتها ، بما لها وما عليها .. حتى تكون أمناء على شرف الكلمة أوفياء لها ، جديرين باحترام القراء والناس لما نكتبه ولأشخاصنا .

ان هذه الفئات التى ترفض ، وتهاجم الآن .. كانت موجودة أيام عبد الناصر بل ان وجودها وتصديها لمسئوليات كبيرة فى تلك السنوات هو السلبية الأولى ، التى ترتبت عليها سلبيات اخرى اكبر ، واكثر فى محيط التجربة الناصرية ككل ..

فبقاء حملة القماقم الذين يشيعون بالبكاء كل جنازة ، ويستقبلون « بالزغاريد » كل فرح ، بقاء هؤلاء ليصفقوا لعبد الناصر ، وليولوا فى عهده أعمالا فكرية ، واعلامية ، وتنفيذية ، هو فى حد ذاته دلالة واضحة على أن بعض الذين قادوا التجربة كانوا غير مؤمنين بها !!

الصحفى الذى ظل يتفنن فى المدح ، والتمجيد ، ولم ير فى التجربة عيوبا ساهم بذلك فى التغطية على السلبيات ، واخفائها، مما ساعد على تفاقمها ..

والمحافظ الذى كان مسئولا عن دفع التجربة الثورية فى محافظته والتصدى للاقطاع لصالح الفلاحين ، وللرأسماليين لصالح العمال ، ثم يخرج بعد أن يموت عبد الناصر ليناقض نفسه ، وقوله وكلامه المكتوب وينقد ما حدث .. هو من سلبيات عبد الناصر ، لانه ترك أمثاله فى موقع المسئولية والقيادة يقولون كلاما لا يؤمنون به ويطبقون تجربة غير مقتنعين بها .

تزييف التاريخ :

والكاتب ـ أو الكاتبة ـ التى لم ينظر أو تنظر الى نفسها لترى ماذا سيكون موقف المراة وموقعها فى المجتمع وعملها او

لم يتح عبد الناصر لآلاف النســـاء أن يتعلمن مجانا حتى يحصلن على الدكتوراة وتفتح امامهن كل ابواب العمل .. ثم لا ترى الا ان تاريخ مصر قد زيف .. لأن عبد الناصر قد زيفه ..

لم يقل لنا امثال هؤلاء لماذا لم يحاولوا كتابة ما هم مقتنعون به ، وما هو الشيء الذى فعلوه لتصحيح التاريخ ومنعه عبد الناصر وكيف فاتت فكرة تزييف التاريخ على عشرات من علماء واساتذة التاريخ المتخصصين الذين يقومون بتدريس التاريخ فى الجامعات والمعاهد العليا والمدارس .. ليأتى هذه الأيام من يكشفها ..

الحرب على النــاصرية :

ورغم كل هذه المحاولات المغرضة ، والعاجزة والمشبوهة .. تقف التجربة الناصرية عملاقة بجماهيرها العريضة فى مصر والعالم العربى ، بين اليمين المتعفن .. الذى يحاول أن يشد المجتمع الى الوراء ، واليسار المتطرف .. الذى يتفق مع هذا اليمين فى رفضه للتجربة ، وان كانت منطلقات ومواقع الرفض مختلفة ..

من هؤلاء وهؤلاء برزت الحرب على الناصرية ، متخذة من التجربة فى مصر محورا أساسيا . والذين يهاجمون عبد الناصر اليوم لا يهاجمون جثـــة تحت رخامة قبر فى مسجـــد بمنشية البكرى ، ولكنهم يهاجمون فكرا طرح على الساحة .. فعبد الناصر الانسان مات ، ولكن عبد الناصر التجربة والفكر سيظل يعيش ابدا .

عبد الناصر الفكر جزء من تراث الفكر العالمى مهما حاولنا تشويهه .. وكل المحاولات الخسارية التى تشتد الآن للهجوم على عبد الناصر موجهة اساسا لقتل هذا الفكر . فاذا لم يمكن .. فلتشويهه . اما عبد الناصر التجربة ففيهـــا الجيد الذى يجب ان ننطلق ، والخطأ الذى يجب ان يقوم ..

على ان التجربة تحتاج في النهاية الى تقييم مخلص وامين ، وموضوعي ، بهدف تطويرها وازاحة السلبيات من طريقها .. وكما أن التجربة عرضة للتقييم للتقدم بها ، فكذلك الفكر فانه لا بد ان ينمو ويترعرع ، وتلك مهمة المفكرين المؤمنين بالتجربة ، فكرا .. وتطبيقا .. والسياسيين المقتنعين بها ، الذين يريدون دفعها .. فهي تجربة من عمر مصر العربية الحديثة ، وليس أمامنا الا المحافظة عليها ، ودفعها حتى لو ظن البعض غير ذلك ، فلن يستطيع ان يمحو آثارها عند الجماهير العربية المصرية العريضة ، بل أن ازدياد الحملة عليها وشراستها ، تدفع الى مزيد من التمسك بها ، فاغلب الذين يهاجمون التجربة موصومون امام الجماهير بتهم متعددة .. لا مجال لانكارها كما أن الحديث عنها سوف يخرجنا من الموضوع الأساسي ، فنحن لا نريد أن نخرج أحدا ، ولا أن نسرد تاريخ احد ، ولا نريد أن نتطرق الى مسائل قد تكون شخصية فكل فرد حر في حياته وفي آرائه وكل فكر عرضة لأن ينمو ، وكل صاحب رأى من حقه أن يقتنع بالرأى المضاد ، ويقف في صف الرأى الذى كان يعارضه - ! - أمانته فقط لنفسه ولقرائه أن يعلن ذلك ، ويقول انه غير رايه القديم ، ويسرد اسباب قناعاته السابقة ، ثم الأسباب التى دعت الى تغيير رايه ، ولا اظن أن كاتبا موضوعيا يؤمن بقداسة القلم ، يرفض ذلك ، خاصة اذا كان ما قام به عن اقتناع كامل ، وان عدوله عن مواقفه القديمة ، كان نتيجة قناعات جديدة كاملة أيضا .. !!

موقف عبد الناصر العربي :

وبعيدا عن الدور الذى لعبته الناصرية على المستويين العربى والعالمى ، نحاول ان نجرى مناقشة سريعة وهادئة لتجربة عبد الناصر في مصر .

ولنا فى هذا الصدد تحفظ واحد هو أنه من الظلم للتجربة الناصرية ، أن نفصلها عما أحدثته فى العالم العربى ، ولا عن الدور الذى قام به عبد الناصر من أجل بعث فكرة القومية العربية .. حتى اصبحت كيانا واقعيا راسخا ، أيام عبد الناصر ، وأتى بثماره فى حرب أكتوبر ، وما بعدها وفى جميع المعارك التى تخوضها مصر الآن .

فلم يعد مقبولا الآن ان يطرح للمناقشة ، موقف عبد الناصر .. بالنسبة لقضية القومية العربية ، هذا الموقف الذى تعتبره القوى الرافضة لعبد الناصر من سلبيات تجربته ..

فمن أهم سلبيات التجربة الناصرية – فى رأيهم – أنه قاتل حتى تحررت المغرب وليبيا والجزائر ، وانه حارب من اجل اليمن الشمالى ، والجنوبى ، ومن اجل أن يجلو الاستعمار عن العراق وعن الخليج العربى ، وان يحتفظ بالكويت كدولة مستقلة .. وتنحسر موجات النفوذ الغربى الاستعمارى الامبريالى عن دول العالم العربى كله .. وان قتاله قد أثمر فى حياته ثورات تحررية، وجلاء للاستعمار ، ومقاومة للنفوذ الأجنبى ، ورفضا للأحلاف المشبوهة ، وصوتا عاليا يواجه الاستعمار بكرامة وشجاعة ويطالب حق العرب فى ارضهم ، وتحرير ارادتهم ، واقتصادهم ، ويواجه القوى العاتية بأن بترول العرب للعرب ..

كل ذلك يرفضه المعادون لتجربة عبد الناصر لأنه كلف مصر ، وميزانية مصر الكثير وهذه الدعوة لا يمكن أن تصعد للمناقشة الطويلة ..

وعبد الناصر لم يبدأ حربا .. فقد كانت كل حروبه دفاعية.. هاجمتنا اسرائيل اكثر من مرة ، وكان عبد الناصر يدافع عن ارضه ووطنه . واذا كانت مصر قد حاربت من اجل تحرير فلسطين ، ومن اجل أن تتحرر اليمن ومن اجل اجلاء الفرنسيين عن الجزائر،

فقد انطلقت مصر فى حروبها هذه ـ من مسئوليتها العربية ، وهى لم تكن تدافع عن امن وسلامة هذه البلاد فقط ولكنها كانت ايضا تدافع عن امن وسلامة واستقلال مصر .. ومع ذلك فلم تكن هى البـادئة بالحرب .. ان تحرير فلسطين لا يعنى مجرد عودة الفلسطينى الى ارضه ودياره وهو هدف سام وكبير ، ولكنه يعنى ايضا تأمين المواطن المصرى ضد العدو الأجنبى .. انه يعنى ضمان سلامة أرض مصر .. وتحرير اليمن .. حرب لم يخضها عبد الناصر الذى ارسل قوة من الجيش لمناصرة ثورة شعب عربى ، تريد ان تنتشله من هوة حكم الجاهلية ، وتضعه على ابواب القرن العشرين .. وواجهت هذه القوة حربا خارجية تريد ان تفرض على الشعب اليمنى ان يظل يعيش فى العصور الوسطى ..

فعبد الناصر ارسل جيشا محدودا ليضمن مناصرة ثورة اليمن وبناء على طلب هذه الثورة ، والذين حولوها الى حرب هم الذين ارادوا ان تنتكس الثورة وتفشل ويعود المواطن اليمنى الى ظلمات القرون الماضية ..

وفرضت الحرب على عبد الناصر من القوى التى ارادت أن تعيد عقارب التاريخ الى الوراء ، واستمرت ثورة اليمن .. واستمرت اليمن جمهورية ، ولم يعد اليها حكم الامام . وخرج الاستعمار البريطانى من شبه الجزيرة العربية ، وتحقق الاستقلال لليمن الجنوبى ، وتحقق الاستقلال للخليج العربى .. وأشاع الوجود المصرى فى اليمن حضارة امتدت منها الى بلاد أخرى ..

وكانت حرب اليمن هى التى ادت الى أول رفع لاسعار النفط ، وكانت هذه الحرب هى التى أدت الى ان يطل اليمن على القرن العشرين ..

ثم كانت حرب الجزائر .. وعبد الناصر لم يحارب فى الجزائر ،

وانما عاون ثوار الجزائر ، وساعدهم بكل طاقاته ، وامكانياته وتلك هى مسئولية مصر رائدة العالم العربى ، وتلك هى مسئولية المبادىء التى رفعها عبد الناصر حربا على الاستعمار من اجل وطن عربى قوى مستقل ..

واذا كانت مصر قد حاربت من أجل تحرير هذه البلاد ، فان موقف العالم العربى فى دعمها اليوم خير دليل على أن هذه النفقات لم تذهب سدى ..

واذا كان عبد الناصر قد حارب من أجل تحرير اليمن بشطريه، فقد تحرر اليمن واستطاع من اجل مصر أن يغلق باب المندب أثناء حرب اكتوبر ١٩٧٣ .

واذا كان عبد الناصر قد حارب من أجل تحرير الجزائر ، فقد تحررت ارض المليون شهيد ووقفت الى جانب مصر سندا فى كل معاركها العسكرية والسياسية والاقتصادية .

واذا كان عبد الناصر قد ارسل جيشا للحفاظ على استقلال الكويت .. ووقف الى جانب السودان وأزعج الاستعمار البريطانى فى الخليج العربى ، ووقف ضد الغزو الايرانى لمنطقة الخليج العربى .. اذا كان عبد الناصر قد حارب من أجل العرب جميعا ، فقد استطاع العرب ان يرفعوا صوتهم ، وأن يطالبوا المرة بعد المرة ، برفع سعر بترولهم ، وأن يفرضوا شروطهم ..

وكان عبد الناصر هو اول صوت ارتفع يقول ان بترول العرب للعرب .. وهو ما تحقق فعلا عندما تملكت بعض البلاد العربية شركات البترول فيها .

وقد جنى الشعب العربى ثمار ذلك كله .. ورد بعضه الى مصر فى أثناء حياة عبد الناصر وبعد وفاته .. فلم يتأخر العالم العربى عن دعم مصر فى أى وقت من الأوقات . ولقد أصبح تضامن الشعوب العربية مع مصر قوة تضاف الى قوتها وتعاونها فى كل المعارك التى تخوضها حتى معارك بنائها الداخلى ..

ونتيجة لمواقف عبد الناصر ، وردا لدين مصر لم تمـــد مصر وحدها ولن تكون أبدا ..

هذا هو العائد السريع بالحساب المادى البحت لنضـال عبد الناصر ، ولما دفعته مصر من أجل العـالم العربى .. هذا اذا جردنا هذه الحروب التى فرضت على مصر فى العـالم العربى من هدفها الأساسى وهى انهـــا كانت حروبا من أجل تأكيد استقلال العرب والحفاظ على امنهم وسلامتهم ، ومعظم هذه الحروب كان من أجل مصر وان كانت أرضها لم تكن على الحـــدود المصرية .. وهذا اذا جردنا هذه الحروب من اية مواقف مبدئيـــة ، أو مما يفرضه الواقع على الدولة الكبرى صاحبة الموقف والمبادىء ، فكل الحروب التى خاضها عبد الناصر ، لم يدفع هو اليها ، ولكنه دفع اليها دفعا ، وشدته القوى الاستعمارية اليها كما ذكرنا .

موقف عبد الناصر من قضية العروبة .. ومن تحرير الوطن العربى ، ودعم نضاله فى مختلف مجالات البناء لا يحتاج الى شرح او تفسير ، رغم أنه كما قلنـــا ، احدى المناقشات المطروحة على الساحة المصرية من القوى الرافضة لتجربة عبد الناصر ، باعتبار ذلك من سلبياتهـــا .

المعترضـون يرددن :

والسؤال الذى يطرحه البعض حول : لماذا دفعت مصر ضريبة من دماء ابنائها ومن اموالها ، من اجل معارك العالم العربى .. تجيب عليـه الأحداث كل يوم قائلة ان القضية واحـدة والمصير واحد .. والأرض واحدة .. والماضى والمستقبل واحد ، وتقول الاحداث ايضا ان مصر لم تقف ابدا وهى لا تقف الآن .. وحـدها كرد فعل طبيعى لدورها الرائد بالنسبة للعالم العربى ، ولعطائها الكبير غير المحدود من اجله ..

ومن الغريب أن بعض الذين ينقدون موقف عبد الناصر بالنسبة « لتبديد » ثروة الشعب المصرى على العالم العربى ، هم انفسهم

الذين ينطلقون ناقدين العالم العربى الآن لأنه لا يقدم لمصر فى تصورهم كل ما تستحقه من دعم وعون ..

أى أنهم فى الوقت الذى يرفضـــون الدور الذى قام به عبد الناصر .. يطالبون دولا عربية أن تقوم بنفس الدور لمصلحة مصر ..

من هنا فان هؤلاء يتطوعون بأنفسهم للرد على ما يثيرونه من اعتراضات ، ويعطون الدليل على أن الحملة تستهدف عبد الناصر ذاته ، دون النظر حتى الى المبـــادىء على أنها استراتيجية مصر التى تقوم عليها سياستها بحكم مسئوليتها العربية .

ذلك كله حـدث انطلاقا من النظرة التاريخية والحقيقية الى موقع مصر بالنسبة للعالم العربى ، ومسئوليتها ، وهو موضـــع فخر واعتزاز وليس مدعاة للسخرية أو التندر ..

البندقية وغصن الزيتون :

ولا أظن أن أحدا يختلف على الدور الذى قام به عبد الناصر لتأكيد اســتقلال مصر وحمايتـــه ، بأن تمد مصر يدها لكل دول العالم التى تؤمن بالسلام والرخاء الانســـانى ، وتتعاون مع كل الدول على أساس من احترام القانون ومن العدل .. ففى تلك السنوات المجيدة الحافلة بكل معانى العزة والكرامة والتى ارتفع فيها اسم مصر ، وكيان المواطن المصرى كسر عبد الناصر احتكار الســلاح ، وساند حركات التحرر الوطنى فى آســيا وافريقيـــا ، مساندة مادية ومعنوية ، فان هزيمة الاستعمار فى أى مكان هى تدعيم للاستقلال الوطنى ..

وقاد عبد الناصر حربا شرسة ضد الاحلاف العسكرية التى كانت تهدف الى تطويق المنطقة العربية ، وتجرها الى منـــاطق النفوذ ، ومن أبرزها حلف بغداد الذى وقع فى ٤ فبراير ســنة ١٩٥٥ بين العراق وتركيا وبريطانيا وايران ، وباكستان ..

وانتصر عبد الناصر .. وسقط حلف بغداد ، وسقط كل الذين وقعوه فى بغداد .

وذهب عبد الناصر الى باندونج يحمل بيد غصن الزيتون وباليد الأخرى بندقية مصوبة الى صدر الاستعمار ، ينادى بالسلام العالمى ، يرفض التفرقة العنصرية ، يطالب برفع مستوى معيشة الشعوب ، وخفض نفقات التسليح ، فالطاقة الذرية مثلا « **اذا استخدمت فى أغراض سلمية تهيىء للشعوب ولا سيما فى البلاد المتخلفة حيث يعيش السواد الأعظم فى فاقة وعوز فرصا لا نظير لها للرخاء الاقتصادى** » .

وفى باندونج يرتفع صوت عبد الناصر من اجل تحرير شمال افريقيا كله فكيف « **يستطيع انسان أن يستسيغ أن أقطار شمال افريقيا التى ظلت قرونا مستقلة ، ومقرا للعلم والعرفان والحضارة العريقة تنحط مرتبتها الى حد أن تصبح مناطق لا تتمتع بالحكم الذاتى** » .

فعبد الناصر هو الذى اعلن الحرب ضد الاستعمار ، والسيطرة الأجنبية بكل ما يملكه من طاقات ، وسعى لتحقيق السلام العالمى ، وللتعاون الدولى من أجل الرخاء ، ونادى بأن تتلاحم قوى التحرر فى العالم . ونبه الى أن الاستعمار الجديد يحاول ان يحقق نفس أهداف الاستعمار القديم ، وبوسائل تبدو فى مظهرها أكثر مسايرة للعصر .

وكان عبد الناصر أحد ثلاثة رفعوا فى العالم راية عدم الانحياز ، والحياد الايجابى الذى أصبح محورا أساسيا لسياسة كثير من الدول المتحررة .

فالتحديات التى واجهتها التجربة المصرية من قوى الاستعمار العالمية عاتية ، وضارية .. ولقد انعكست هذه التحديات بشكل

مباشر على الأوضاع الداخلية فى مصر .. فلم يكن عبد الناصر يقوم بعمليات بناء فى الداخل طوال سنوات حكمه ، ولكنه كان يقاتل فى الخارج أيضا من أجل الحفاظ على هذا البناء الداخلى ..

عبد النـــاصر فى الخندق :

ولقد عبر عبد الناصر عن ذلك فى سنواته الأخيرة عندما قال انه أمضى ثمانية عشر عاما من عمر الثورة ، يعيش فى الخندق ، الذى يحميه من هذه الضربات الموجهة اليه ، وهى ضربات عنيفة وقاسية ، تحالفت فيها قوى عديدة ، وجدت أنه من الضرورى الانقضاض على تجربة عبد الناصر ، واجهاضها قبل أن يكتمل نضجها ، ويستفحل شرها ، عندما تمتد فيخرج المشعل والنموذج من مصر ليهدد مواقعها ، داخل مناطق عديدة ، لا من العالم العربى بل ومن دول العالم الثالث أجمع ، فيكف يمكن لرئيس يقود دولة صغيرة ان يقف فى وجه الدول العاتية ويعترض مشيئتها ويحط من قدرها وهيبتها .. ويطالب بحقوق بلاده ، ويقاتل من أجلها .. تلك كانت جريمة عبد الناصر .. وكان لا بد ان يدفع الثمن ..

وكان الثمن هو الحرب الشرسة التى جعلته يلجأ الى الخندق طوال سنوات حكمه .. وكان الثمن أيضا أن تحشد طاقات كثيرة ، وتستنفد الموارد والوقت ، وتوجه الجهود والعيون الى المتربصين لهذه التجربة فى الخارج ، ومن يعاونهم فى الداخل ..

وجندت قوى الاستعمار العالمى ، الامكانيات لهذه الحرب القذرة، وشارك فيها بعض الذين اضيروا من التحول الاجتماعى فى مصر ، وبعض أفراد من القوى التى تتصور أنها يمكن ان تضار لو تدعمت التجربة وامتدت ووصلت اليها ..

حروب ضد عبد النـــاصر :

ولم تكن أسلحة الحرب هى الجندى الذى يحمل الســـلاح ،

مدعوما بقوى الاستعمار العالمي فقط ، وذلك قد حدث في مصر مرتين أثناء حكم عبد الناصر ، وحدث في بلاد عربية أخرى وتصدى له عبد الناصر .. لم تكن هذه وحدها هي صورة الحرب التي اعلنها علينا الاستعمار بل لقد شهر كل أسلحته .. ابتداء من حرب التجويع والحصار الاقتصادي ، حتى محطات الاذاعة العربية التي تهاجم عبد الناصر ، وكان عددها ١٩ محطة غير الاذاعات العلنية العديدة التي تنطق بلسان الاستعمار وغير الصحف التي يمولها بامكانياته الهائلة ، وهي كثيرة أيضا . وكانت آخر فنون هذه الحرب .. هي حرب الاشاعات التي استخدمت على نطاق واسع ، فشنت حروبا نفسية على عبد الناصر وتجربته بلغت ذروتها بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ .. ثم خرست عندما لم تجد ما كانت تتوقعه من أصداء وعادت هذه الحرب كأقوى ما تكون بعد بعد رحيل عبد الناصر بشهور .. فانطلقت تتحدث بل وتكتب مشوهة كل انجاز حتى وصلت الى ما أسمته سرقات عبد الناصر ، وجرائمه .. والملايين التي هربها الى الخارج والجواهر التي نهبها من القصور الملكية .. وغير ذلك من الشائعات التي لم يكن من المتصور أبدا ان تنطلق ضد عبد الناصر بالذات ..

فقد يختلف العدو والصديق حول تجربة عبد الناصر وحتى حول شخصيته ، ولكن الخلاف ينبغي أن يظل دائما في أطار من الأخلاق ..

فالعدو قبل الصديق يعرف أن من أبرز ما يميز عبد الناصر حقيقة هي نقاوته وطهارته الثورية .. وأن عبد الناصر أمر بحبس عمه الذي رباه والذي يحبه ويحترمه لأنه استغل نفوذه . وانه قاوم الانحراف واستغلال النفوذ بالنسبة للمحيطين به والمتعاونين معه .. والعدو قبل الصديق يعرف أن عبد الناصر عاش سنوات حكمه راهبا في محراب مصر .. آماله ، وأهدافه كلها مصر كما يتصورها جزءا من العالم العربي الجديد .. وانه لم تكن له حياة خاصة ، ولم تكن له نزوات ، ولم يكن عاشقا للرفاهية والاستمتاع ، فحياته كلها .. كلها العامة والخاصة كانت داخل بيته المتواضع ..

لم يكن عبد الناصر يفكر فى ذاته ولا فى ملذات يهواها المترفون بل كان يهتم بأن يعلم أولاده وبناته ، وأن يؤهلهم لكى يعملوا •• وقد التحقوا بوظائف فى حياته ايمانا منه بالعمل كقيمة ، ولو كانت المسألة عنده تتجاوز حد العمل كقيمة لما سمح لبناته بالعمل حتى بعد الزواج ••

ذمة جمال عبد النـــاصر :

واعداء عبد الناصر الذين جندتهم المخابرات الأمريكية المركزية في العالم والصقوا به كل التهم فى حيـــاته ، لم يستطيعوا أبدا وطوال حيـــاته أن يتعرضوا لنظافة يده ولطهارته الثورية ، ولم تواتهم الشجاعة ليطعنوه فى عفة يده وذمته الماليـــة .. لأنهم كانوا سيجدون الرد الحقيقى والموضوعى حول كل هذه الأمور •• أما أن تتحدث هذه الألســنة اليوم عن أن عبد النـــاصر سرق الملايين وهربها للخـــارج ، فلن تجد من يرد على هذه التهمة •• لأن الذين يقولون ذلك يمعنون فى التمويه فيقــولون أن الملايين وضعت فى بنوك سويسرا بأرقام سرية لم يكن ليعرفها الا عبد النـــاصر وأنه لا يمكن أن يستردها الا عبد النـــاصر •• اذن فهى تفقد الجزء الأكبر من قيمتهـــا لو كان ذلك صحيحا لأن أهميتها تتعلق بحيـــاة عبد الناصر وحتى لن تفيد أسرته من بعده ••

لقد حاول البعض أن يقيم الدنيا ويقعدها حول ما اســماه بسرقات عبد الناصر •• فقد اكتشف « احدهم » أن عبد الناصر قد هرب أموالا الى الخارج •• وكان وراء هذا الاتهام قوى لا أظن انها يمكن أن تخفى على أحد •

الاموال التى اتهم عبد الناصر بسرقتها هى جزء من قرض قدمه الملك ســـعود الى مصر وقيل أن عبد الناصر قد أودع هذه الاموال فى حســـاب له •

الذين وجهوا هذا الاتهام كان ينبغى أن يتواروا خجلا بعد أن ثبت أنهم وقعوا فى كمين نصبه لهم اشـــخاص غير امناء •• عامدين أو غير عامدين •• فقد أصدر رئيس البنك المركزى المصرى

بيـــانا بالوثائق يقول فيه ان هذه الأموال قد أودعت فى البنك المركزى المصرى .. واصدر رئيس وزراء مصر بيانا آخر بما تجمع لديه من مستندات يقول ايضـــا ان هذه الأموال دخلت مصر (١) واصدر المدعى العام الاشتراكى تقريرا بعد تحقيق أجراه تبين فيه كذب هـذا الادعاء .. وتحـدث رئيس الجمهورية الى احـدى الصحف (٢) ثم الى مجلس الشعب مبرئا ذمة عبد النـاصر .. وكان من المفروض بعد ذلك كله أن يواجه بالقـانون هذا الذى اعتدى على شرف عبد النـاصر وخالف ميثـاق الشرف الصحفى وخان أمانة الكلمة ..

ولو أن هذا الاتهام وجه الى مواطن مجهول فى أى قرية نائية ثم ثبتت براءته لكان من حقه أن يقاضى من شـهر به ، ذلك حق كفله القانون حماية لشرف أى مواطن من أن ينتهكه أحد ..

ولو كان هذا الاتهـام قد وجه الى مسـئول وثبتت براءته لاستطاع أن يحرك أجهزة القضـاء ونقابة الصحفيين لتعاقب من افترى عليه كذبا .

ولكن هذا الصحفى لم يهاجم مسئولا ولم يطعن مواطنا مجهولا وانما هاجم وطعن عبد الناصر ورغم التأكد من كذبه فان اجـراء واحدا لم يتخذه ضده .. ولعل القانون يغمض عينيه احيانا سهوا أو خطأ أو تجاهلا أو نسيانا .

ووصلت الحملة اللا أخلاقية على عبد النـاصر الى أبعد من ذلك ، ففى سـاحة القضـاء وقف واحد من بقايا فلول أحزاب الأقلية السابقة .. ليتحدث عن أخلاقيات عبد النـاصر وغزواته النسائية ، ورغم أن كلماته نشرت مبتورة فى الصحف الا انهـا قد استفزت الجماهير الى حد ان رياسـة الجمهورية أصدرت بيـانا قالت فيه انها لن تسمح بالهجوم على عبد الناصر .. ولا بتجريح الزعماء الوطنيين الذين أدوا خدمات لبلادهم ..

(١) البيانات نشرت فى الصحف المصرية يوم ٤ فبراير ١٩٧٦ .

(٢) جريدة عكاظ السعودية .

لقد بدأت الحملة على عبد الناصر بأنه سرق الثورة وانتهت بأنه سرق الأموال ـ بدأت الحملة خافتـة ، خائفة ، ثم وجدت مناخا صالحا لكي تنمو نموا شيطانيا ليس له أسـاس .. بدأت الحملة بتجريح منجزاته .. وانتهت بتجريح شخصه .

كانت قوى الاستعمار العالمى هى الد أعداء عبد الناصر وأكبر خصومه ، وكانت تتصيد له الأخطاء وتحاول دائما أن تطعنه ولكنها لم تستطع أن تبلغ فى ضراوة خصومتهـا هذه الجرأة فى الافتراء على الحق .

كان أقصى ما وجهه اليـه أعداؤه الالداء من اتهامات أن يقود البلاد الى الدمار ، وانه دكتاتور ، وغير ذلك مما كانوا يتصيدونه من اخطـاء التطبيق ويجسدونهـا ، كما يحلولهم ، ولاتباعهم فى الداخـل .

هؤلاء الاتباع الذين لم يقض عليهم عبد الناصر بل جرد بعضهم من بعض ثرواتهم ، وتركهم يعيشون وسط الناس ، يعملون .. بل لقد احترف بعضهم أعمالا طفيلية ، أعادت اليـه الثراء القـديم ، وعاش فى نفس الطبقة القديمة ، دون أن يحاسبه أحد .. لا على فكره ، ولا على رفضه ، ولا على الأرباح الطفيلية التى حصل عليها حتى الضرائب ذاتهـا ربما لم تصل اليهم .. وكانت بعض شرائح الطبقة القديمة هى نواة الطبقة الجديدة التى نمت خلال فترة حكم عبد الناصر .. وكان نموها نموا سرطانيا خبيثا ، ولعل ذلك من بين السلبيات التى يجب أن نذكرها عنـدما نتحـدث عن تجربة عبد النـاصر ..

من زيف التاريخ :

تجربة عبد الناصر لم تكن خالية من العيوب ، فعبد الناصر لم يكن نبيا ؛ ولا معصوما من الخطأ .. ولتجربته سلبياتها ، ولـكن

هذه السلبيات بكل المقاييس والمعايير لا يمكن أن تطغى على الايجابيات ولا تؤثر عليها عند التقييم العلمى ، وفتح الملفات الحقيقية كاملة..

على انه من الظلم أن نتصور أننا ونحن نتحدث عن تجربة عبد الناصر بسلبياتها وايجابياتها أننا نكتب التاريخ ، أو ان تقييم التجربة ، او ان فتح الملف هو اعادة لكتابة التاريخ فليس صحيحا ان التاريخ كتاب يمكن أن يتناوله شخص ما ليعيد كتابته بأسلوب شيق يغفل احداثا ، ويبرز أخرى لأغراض فى نفسه ..

ليست هناك دعوة أكثر كذبا وتزييفا من الدعوة الى اعادة كتابة التاريخ ..

فالتاريخ أحداث يرصدها المؤرخون ، وقد يحللونها او يعقبون عليها ، أو يتناولونها كل من وجهة نظره .. وهم قد يختلفون وقد يتفقون ، ولكن الحكم فى النهاية للأجيال القادمة ، هذا اذا اعتبرنا ان فترة عبد الناصر دخلت فى حكم التاريخ وهو ادعاء أعتقد انه زائف أيضا ، فما زلنا نعيش هذه الفترة ، وما زلنا متأثرين بها سلبا وايجابا ، وما زالت كل وثائقها واحداثها وذوافعها ، وأسرارها لم تنشر بعد ، فكيف اذن تكون فى عداد التاريخ ؟ !

ان المؤرخين مازالوا يتناولون بوجهات نظر مختلفة حتى الآن ـ وفقا لرؤيتهم ، ولما يكتشف من دقائق ، فترات من تاريخ قدماء المصريين ، أو العرب ، فى عصورهم المختلفة ، كما ان هناك مؤرخين ما زالوا حتى الآن يتناولون بوجهات نظر مختلفة أيضا تاريخ الثورة الفرنسية ، مثلا ، وثورة عرابى وغيرها ، والرسائل العلمية التى تقدم للجامعات فى التاريخ . لم تكن حتى فترة قريبة تتناول ابدا تاريخ العصر الحديث ، ولكنها تتناول فترات ماضية ، وكل رسالة يقدم صاحبها جديدا ، وجهة نظر .. أو وثائق ، والا لكان يكرر ما سبق ان كتب ، وهو أمر غير مقبول فليست هناك اذن صياغة

واحـــدة للتـــاريخ . ولا يمكن فرض وصاية على احد فى كتابة التـــاريخ .

ان كثيرا من اسرار ثورة ١٩ يدعى البعض فى هذه الأيام ـ وبعد مرور آكثر من نصف قرن عليها ـ انهم ينشرونها ويزيحون الستـار عنها لأول مرة .

فكيف اذن بفترة ما زلنا نعيشها ، وكيف اذن بحياة رجل رحل منذ سنوات لم تجاوز أصابع اليد الواحدة ، ولم يتح للمؤرخين ان يطلعوا بعد على كثير من وثائق هذه الفترة . وعنـــدما تنشر كل الوثائق ، وتكون فى متناول الدارسين والباحثين والمؤرخين ، فاننا سنرى وجهات نظر مختلفة فى تحليل هذه الوقائع ، ولابد أن نتقبل كل وجهات النظر العلمية المبنية على حقائق ..

اذن فأحداث التاريخ واحدة ولكن ليست هناك صياغة واحدة للتاريخ .. وهذا الشـعار الذى طرح على الساحة المصرية باعادة كتابة التاريخ شعار مغرض ، لأنه باسم العلم يحـاول ان يقول ان هذه الفترة دخلت فى عـداد التاريخ ، وهو موضــع خلاف وأن عبد الناصر قد زيف التاريخ لحسابه ولحساب ثورته ..

وعبد الناصر لم يزيف تاريخ ثورة يوليو ، ولا تاريخ مصر قبل ثورة يوليو .. ولو كان يريد ذلك لما استطاع .. بل لقـد كان من اكثر الذين تحدثوا عن هذه الثورة ، وعن كل وقائعها التاريخية ..

وعبد الناصر هو الذى صاغ فى ميثاقه جذور النضال المصرى ، من وجهـة نظره ، ولم يمنع أن تناقش وجهـة النظر هذه ، ليس فقط فى المؤتمر الذى اقر الميثـــاق ، بل وعلى صفحات الصحف واختلف البعض معه فى تحليله لتاريخ مصر واتفق معـــه البعض الآخر معه ، ولكن ظلت رؤيته للتاريخ هى رؤية عبد الناصر ..

فلم تمنع هذه الرؤية المؤرخين من ان يتحدثوا عن فترات مصر

قبل الثورة ، كل بوجهـة نظره .. وكل وفق ما توافر لديه من معلومات .. وهذا هو التاريخ .

كان عبـد الناصر يرى أن ثورة ١٩ قد فشلت ، وان الأسباب التى ادت الى فشلها هى التى دعت الى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ وكان كتاب آخرون ، يرون العكس ، ونشروا ذلك فعـلا وقالوا لا لم تفشل ثورة ١٩ لأن وجهة نظرهم مختلفة (١) .

ومن الغريب ايضا أن معظم المؤرخين المصريين يتفقون فى رؤيتهم لثورة ١٩١٩ مع عبد النـاصر فى أنها فشلت ..

وكتب التاريخ كلها حتى الجامعية منها ، وكتب المدارس كلها تجمـع على ان ثورة ١٩ قد فشلت فى تحقيق أهدافهـا ، وهذا لا يعنى أن مؤلفيها متعاطفون مع عبد النـاصر ، فان بعض الكتب التى تؤكد رؤية عبد النـاصر لتاريخ مصر قبل الثـورة ، تنهال فى نفس الوقت على عبد الناصر (٢) ..

ومع ذلك فانه فى عصر عبدالناصر صدرت العديد من الدراسات عن تاريخ ما قبل الثورة ، تناولت الحياة السياسية والاجتماعيـة والاقتصادية .. وصـدرت دراسات عن الديمقراطيـة والاحزاب ودستور ١٩٢٣ .

وكانت هـذه الفترة تدرس فى الجامعات والمدارس .

وفى عصر عبـد الناصر أنشىء أول مركـز لوثائق تاريخ مصر الحديث .

---

(١) انظر سلسلة مقالات فى روز اليوسف عام ١٩٦٢ .. لا لم تفشـل ثورة ١٩١٩ .

(٢) كان لمصطفى امين الفضل فى الكشف عن فشل ثورة ١٩١٩ ، فكتب سلسلة مقالات عن اسباب فشل هذه الثورة .

وفى مكتبة الجامعة مئات من الكتب والرسائل الجامعية العلمية التى تعكس رؤية مؤلفيها لتاريخ مصر فيما قبل ثورة يوليو ..

وفى عصر عبد الناصر اقيم مهرجان كبير بمناسبة مرور نصف قرن على قيام ثورة ١٩١٩ ، وصدرت عشرات الكتب تحوى دراسات مختلفة عن ثورة ١٩١٩ التى كانت تدرس فى المعاهد الاشتراكية على مختلف مستوياتها .

وفى عهد عبد الناصر اصدر المؤرخون دراسات تعكس وجهة نظرهم فى حادث ٤ فبراير ، وبعضهم برأ الوفد فى دراساته وكان هذا على عكس وجهة نظر عبد الناصر ...

كان كل واحد من هؤلاء يعكس وجهة نظره ، ويقول رايه ، ولم يحدث أن صادرت الثورة كتابا لواحد منهم .. أو انها حاولت أن تغير راى كاتب له وجهة نظر فى التاريخ ، ولم نسمع عن استاذ أو كاتب ألف كتابا يبدى فيه وجهة نظر فى تاريخ مصر ، وصادرته الثورة بل لعل العكس هو الصحيح فقد أفرجت الثورة عن الكتب التى كانت مصادرة عن ثورة عرابى .

وفى عصر عبد الناصر صدرت عديد من الدراسات عن ثورة عرابى وحريق القاهرة ، وفى عصر الثورة أصدر الدكتور محمد حسين هيكل مذكراته كاملة ، وكذلك فعل معظم السياسيين الذين لعبوا دورا قبل الثورة .

ويقول عبد الرحمن الرافعى انه عقب قيام الثورة مباشرة ذهب ليهنىء قادتها ، فأبلغوه أنهم أفرجوا فى الحال عن كتابه عن عرابى الذى صادروه « العصر الذى لم يزيف التاريخ » .

وفى مصر ـ كما فى كل بلاد العالم ـ مدارس متعددة فى التاريخ تختلف وتتفق ولكنها جميعها ترفض هذه الدعوة التى انطلقت « تقول أنه لابد من اعادة كتابة التاريخ ..

التاريخ أحداث ووقائع .. والأحــداث والوقائع لا يمكن ان تختفى .. فبصماتها وسجلاتها لا يمكن ان تمحى .. ولا يمكن ان تزول ، وخاصة فى العصر الحـديث .. وعلى أى حال فان دعوة اعادة كتابة التاريخ على ما تنطوى عليه من زيف ربما تكون مقبولة اكثر من المطالبـة بالغـــاء عشرين عاما من تاريخ مصر ، والعودة بالاوضاع الى ما قبل يوليو ١٩٥٢ ..

أكبر سلبيات عبد النــاصر :

التجربة الناصرية فى مصر لها سلبياتها ، التى لا يمكن أن تختفى .. وليس هناك من ينكر هذه السلبيات لأنها قائمة .. ولأنها حقيقة ولكن ليس من هذه السلبيات تأكيد انتماء مصر العربى ، وما استتبع ذلك من اعمال ، ومواقف نظرية وعملية .. وليست منها اقامــة القطاع العام ، ولا تحقيق العــدل الاجتماعى ، وليست السلبيات ايضا فى حروب عبد الناصر ، تلك كلها من وجهة النظر الامينة من ايجابيات عبد الناصر ..

السلبيات من وجهة نظر هذه الدراسة تتلخص فى اساس واحد تفرعت منه اخطاء عديدة بعضها كبير وكبير جدا ..

هذا الاســاس ، هو عدم اقامــة تنظيم ســياسى ، قوى ، وقادر وفعال ، يتولى السلطة باسم الشعب .. يعلى كلمته ويرفع صوته ، ويشارك فى اتخاذ القرارات ، ويكون له رأيه الواضح وصوته القوى، ويقود عمليات البناء .. يدخل معارك الحرب ومعارك التنمية بنفس القدر من الحماس الواعى النظيف ببرامجها ، عندما جاءت الثورة رأيناها تعلن عن تطهير الاحزاب . .ثم تفتح البــاب لانشــاء احزاب جديدة .. ثم تلغى الاحزاب تماما .. وفى نفس الوقت فان الثورة اعلنت انها جاءت لتحمى الدستور ، وتؤكد ســيادته ، ثم الغت الدستور بعد فترة قصيرة ، واعلنت عن فترة انتقالية ..

ولقد إستمر هذا القلق فترة يعكس الأوضاع الفكرية داخل مجلس قيادة الثورة ..

وفي البداية كان موقف عبد الناصر واضحا من قضية الديمقراطية ، ويروى الرئيس انور السادات أن مجلس الثورة قد اتخذ قرارا إجماعيا ، بأقامة نظام دكتاتورى فى مصر عقب قيام الثورة مباشرة ، وأن شخصا واحدا اعترض على هذا القرار ، وقدم استقالته الى المجلس احتجاجا على موقفه بمصادرة الديمقراطية .. وكان هذا الشخص هو جمال عبد الناصر ، الذى وقف وحده فى وجه مجلس قيادة الثورة مطالبا بالديمقراطية ..

واقامت الثورة أول تنظيماتها الجماهيرية وهو هيئة التحرير ...

ولقد استمرت هيئة التحرير سنوات خمسا ، وقعت مصر خلالها اتفاقية جلاء القوات البريطانية عن مصر ، وفى هذه المرة وافق الاستعمار على أن يحمل عصاه على كتفيه ويرحل ، ليس لمجرد أننا صرخنا فيه .. فعندما كنا نصرخ مطالبين بالجلاء كان المناخ السياسى فى مصر مختلفا فمصر تعيش ثورة موقفها موحد حول هذه القضية، بلا مزايدات ، وليس هناك مجال لأن يتسلل الاستعمار ، بواسطة أعوانه ليخرب اتفاقا أو ليزايد عليه — وان كان قد حاول — وكان الأهم أننا كنا نصرخ ونحن نحمل السلاح ، وكتائب الفدائيين والمقاومة التى تدعمها قوات الجيش تخوض كل يوم ، بل كل ساعة ، معارك تؤرق ٨٠ الف جندى هم مجموع القوات البريطانية التى تعسكر فى منطقة القنال ، ويقف « سلوين لويد » فى مجلس العموم البريطانى ليقول : انه فى ستة أشهر بلغت الحوادث فى القاعدة البريطانية ١٥٠٠ حادثة .

وخاضت هيئة التحرير مع عبد الناصر معركة العدوان الثلاثى على مصر فى سنة ١٩٥٦ .

لم تكن هيئة التحرير تنظيما سياسيا بالمعنى المعروف ، ولكنها كانت أشبه ما يكون بالتجمع الوطنى الذى يضم كل القـوى المصرية « فكلنا هيئة التحرير » ..

وكان هذا الشعار وحده دليلا على سطحية النظرة الى الأمور، فلم يكن الشعب المصرى فى حقيقته كله هيئة التحرير ، كما انه لم يكن كله الاتحاد القومى ، وهو التنظيم الثانى الذى أعلنته الثورة فى مايو ١٩٥٧ .

الإعـداد لتأميم القنـاة :

كان الاستقلال الوطنى قـد تحقق ، وفشلت محاولة غزو مصر مرة ثانية عقب القرار التاريخى الذى اتخـذه عبد الناصر بتأميم القناة ، وهو القرار الذى أعد له منذ عام ١٩٥٤ . واختار الوقت المناسب لاعلانه .

وتجدر الاشارة هنا الى ان هيئة قناة السويس كانت تسعى لدى الثورة لتجديد عقد امتيازها لتسعة وتسعين عاما أخرى ، فلم تكن لتتخلى بسهولة عن القناة وتسلمها لمصر بعد انتهاء موعد امتيازها .. وأنها كانت قد شكلت لمد الامتياز لجنة من بين أعضائها المصريين سابا حبشى وأن هذه اللجنة قابلت كل أعضاء مجلس قيادة الثورة لاقناعهم بمد فترة امتيـاز القنـاة ، ويقول الدكتور مصطفى الحفناوى عضو أول مجلس ادارة مصرى لشركة القنـاة المصرية المؤممة انه التقى بعبد الناصر سنة ١٩٥٤ وانه وعده بأن يتم تأميم القناة سنة ١٩٦٠ .. حيث تكون مصر قد استعدت لمواجهة نتائج هذا التأميم ، وأن اتفاقا شفهيا تم بينهما على ذلك ، حتى فوجىء بعبد الناصر يستدعيه يقول له أن الموعد الذى سبق أن حـدده لتأميم القناة قد تعدل ، وأصبح عام ١٩٥٦ .

ويقول الدكتور الحفناوى أيضا انهم وجدوا فى وثائق شركة قناة السويس بعد التأميم نتائج مقابلات لجنة مد الامتياز ، وأن اللجنة

ذكرت انها قابلت جمال عبد الناصر وزير الداخليـــة ، وحاولت اقناعه بمد امتياز شركة القنــاة ، وان عبد النـــاصر استمع الى اللجنة فقط ، ولم يبد أى رأى .

تجربة الاتحـاد القومي :

عندما اعلن قيام الاتحاد القومي ، لم تكن ايضا الأهداف قـــد تبلورت « كمـــا لم تكن قوى الثورة فى مواجهتهـــا لحتمية التغيير الاجتماعى قد استطاعت أن تحدد دليلا للعمل الثورى تلتقى عليه الجهود ، وكان الفكر الثورى فى تلك الفترة يتطلع الى الوحدة الوطنية ويدرك اهميتها، لذلك فقد وقع فى خطأ حين توهم أن الطبقةالمحتكرة التى كان لابد أن تسلبها الثورة امتيازاتها الاستغلالية يمكن أن تقبل الوحدة الوطنية مع قوى الشعب صاحبة المصلحة فى الثورة » .

وقام الاتحاد القومي على أساس « انه ليس حكومة ولكنه تنظيم يضم الحاكمين والشعب ويتيح الفرصة الحقيقيـــة ، لتعاونهم على علاج المشاكل المحلية والقضايا العامة فى ظل المجتمـــع الاشتراكى الديمقراطى التعاونى » .

ان مصر وهى تخوض أول معاركها للبناء الاقتصادى والاجتماعى بعد الاستقلال كان عليها أن تبذل جهـدا مضاعفا لتعويض ما فاتها وعلى ذلك « فالاتحاد القومى بجموعه وبأعضائه .. بلجانه ومنظماته فى سائر المستويات هـــو التنظيم الشعبى الذى يحقق اهدافنا ، ويحقق لنا المجتمع الاشتراكى الديمقراطى التعاونى » .

وكان الاتحاد القومى نموذجا مكررا من هيئة التحرير .. فقـد ضم كل الشعب فى ظل اطار الوحدة الوطنية ..

كان رأس المال المصرى قد خسر أهم معاركه عندما حرمه عبد الناصر من وراثة رأس المال الأجنبى ، فقد طالب الرأسماليون فى

مصر بأن يحلوا مكان رأس المال الأجنبي الذي طرد ووضع تحت الحراسة عقب العدوان الثلاثي ، وذهب نفر منهم لمقابلة وزير المالية الدكتور عبد المنعم القيسوني واقناعه بالفكرة ، وقدموا اليه طلبات لشراء الشركات الفرنسية والانجليزية التي فرضت عليها الحراسة ، وذهب الدكتور القيسوني الى عبد الناصر يحمل كشفا قدم اليه بيد الرأسماليين بأسماء هذه الشركات ، وعرضا منهم لشرائها ..

ورفض عبد الناصر « **فاننا لن نستطيع بأي حال أن نجعل الرأسماليين يزيدون من تحكمهم بأن يستولوا أيضا على ممتلكات فرنسا ، وممتلكات انجلترا** » .

ورغم أن عبد الناصر بدأ يتجه الى اقامة نواة للقطاع العام تحت اسم المؤسسة الاقتصادية ، وكانت اقامة هذه المؤسسة في حد ذاتها دافعا لأن تأخذ شرائح من الرأسماليين موقفا من حكم عبد الناصر ككل ، وخاصة بعد رفضه تمليكهم الشركات الأجنبية ، وبعد عدد من القوانين التي صدرت تحمي العمال وتؤكد حقوقهم في مواجهة رأس المال .

ورغم أن ثورة يوليو في سنواتها الأولى اصدرت قانون الاصلاح الزراعي الذي حدد الملكية الزراعية بمائتي فدان للفرد ، على أن توزع الأرض المتبقية على الفلاحين ، ووضعت ضمانات لعدم طرد المستأجرين للأرض الزراعية ، وحدا أدنى لأجور العمال الزراعيين ، وكانت هذه الاجراءات في حد ذاتها أيضا تعني أن الاقطاعيين وكبار الملاك الزراعيين يتخذون موقفا مضادا من الثورة بحكم مصالحهم التي أضيرت ..

رغم ذلك كله كان الإتحاد القومي التنظيم السياسي الثاني للثورة ، الذي يحشد الجهود لبناء « الاشتراكية الديمقراطية التعاونية » يضم كل هؤلاء بل ان بعضهم اتخذ فيه مكان الصدارة واحتل بعض مواقع القيادة في مستوياته المختلفة ..

وكان الاتحاد القومى ـ مثل هيئة التحرير ـ تنظيما غير فعال ولا مؤثر ... ولا مقنع أيضا .

فلم يستطع أن يؤدى ما كان مأمولا منـــه ، وما كان ليستطيع ذلك ، فى غياب دليل ثورى للعمل ، وفى اطار التناقضات الكبيرة التى يضمها .. واخيرا ولد الاتحاد الاشتراكى ..

وقبل ان نتعرض لتقييم تجربة الاتحاد الاشتراكى خلال فترة حكم عبد الناصر لابد أن نقف لنحدد طبيعة الثورة التى انبثقت فى مصر فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

طبيعه ثورة عبد النــــاصر :

قام الجيش بالثورة كطليعـــة الشعب .. دون تنظيم شعبى يساندها من البداية ، ولم تكن لها نظرية محددة ، كما انها وقعت فى التناقض الشهير بين استمرارها فى الحكم أو تسليم البـــلاد الى رجال الأحزاب القدامى وعودة الجيش الى ثكنـــاته ؛ كما طالب بعض الضباط الأحرار ورجال الأحزاب القديمة الذين اتصل بهم اللواء محمد نجيب فى محاولة لمعاونته على الاستمرار فى الحكم لأنه سيعيد الأحزاب ، ويسلم البــــلاد لهم بحيث يتركون له القيادة ..

وعندما وقعت احداث مارس ١٩٥٤ ، على أثر تفجر الخلاف فى مجلس قيادة الثورة حسمه العمال عندما خرجوا يطالبون باستمرار الثورة ، وهو امر لم يدبره عبد الناصر ولم يخطط له بل انه رفضه، ونصح بايقافه ولكن عددا من العمال الذين وجدوا فى الثورة خلاصهم هم الذين اصروا على استمرارها وعدم عودة الجيش الى ثكناته .. وربما حدث ذلك بدافع من وعى العمال، أو بايعاز من بعض قياداتهم التى مالت الى الثورة فى محاولة للاستفادة المادية والأدبيـــة ، أو حتى بايعاز من بعض رجال الثورة او عبد الناصر نفسه ولكن ذلك

لا يمنع أن حركة العمال ـ وعمال النقل بالذات ـ كانت ذات أثر فعال فى التمكين للثورة من الاستمرار ولعبد الناصر من أن يظل فى موقعه كقائد لتنظيم الضباط الأحرار الذى كان قد أسسه قبل الثورة بسنوات ..

فالضباط الأحرار لم يكونوا مستعدين لحكم البلاد ، كما أن جمال عبد الناصر رئيس مجلس قيادة الثورة رفض أن تستوعبه الأحزاب ، أو أن يرتمى فى أحضانها ، فبمثل ما رفض عبد الناصر الاحزاب التقليدية التى كانت موجودة قبل عام ١٩٥٢ ، رفض أيضا محاولات الاحتواء التى حاولها تنظيم « الاخوان المسلمين » ، بعد أن حلت الأحزاب ، وخلا لهم الجو ، وتوهموا أنهم وحدهم القوة المنظمة التى تعتمد عليها الثورة ، استثمارا للفراغ السياسى الذى نتج عن حل الأحزاب السياسية ، ولحاجة الضباط الصغار محدودي الخبرة فى العمل السياسى والحزبى الى الجماهير الشعبية المنظمة .

رفض عبد الناصر هذه المحاولات وقال انه « **واذا كان تنظيم الاخوان المسلمين يريد الاستمرار فليمارس نشاطه الدينى بغير حدود ، دون أن يتدخل فى السياسة** » وهو أمر أثبتت تطورات الأحداث بعد ذلك أنه غير عملى انطلاقا من عقيدة راسخة أعلنها الاخوان المسلمون ، بأن الاسلام دين ودولة .. مصحف وسيف ..

من هذه الطبيعة الغريبة والشاذة بدأت مسيرة ثورة يوليو .. ثورة وطنية تنشد الاستقلال الوطنى والتنمية الاجتماعية .. تقودها كتلة الوسط فى مجلس قيادة الثورة ، بعد أن ترك ممثلو الاخوان المسلمين فى المجلس مقاعدهم ، وكذلك فعل الشيوعيون .. تملك فقط مبادئها الستة التى أعلنتها .. وكانت هذه المبادىء الستة هى البرنامج الرئيسى « لحركة الضباط الاحرار » وهى تتضمن مفاهيم نظرية ، تعبر عن منهج سياسى واجتماعى على الثورة أن تتحرك من

خلاله ـ اذا ارادت أن تلتزم بهذه الخطوط ـ لتعبر عن الجماهير ، وتستجيب لآمالها ، ولكثير من مطالبها ، ولكنها لاتتيح لهذه الجماهير أن تشارك المشاركة الواجبة وقد تسمح لها بالمبادرات الفردية الخلاقة ، ولكن الاستجابة لهذه المبادرات ظلت تتعثر فى دهاليز البيروقراطية منذ بداية التجربة الناصرية حتى غياب عبد الناصر ..

بدأت مسيرة الثورة اذن بلا أيديولوجية مكتملة تحدد موقفها ، وبلا تنظيم شعبى جماهيرى يساندها ، كان الأمر يبدو وكأنها حركة عسكرية قامت بها مجموعة من الضباط المغامرين بهدف الاستيلاء على السلطة لا أكثر ولا أقل ، ثم تحويل هذه السلطة لخدمة أهداف محدودة جدا .. صغيرة جدا ، ورغم ذلك فقد اختلفت حول مداها قيادة الضباط الأحرار ، وادت الى خلخلة بين صفوف أعضاء مجلس قيادة الثورة فيما بعد .

الشعب وأعداء الشعب :

من هنا بدأت الثورة اقامة التنظيمات السياسية على طريق التجربة والخطأ .. لتحقيق المبادىء والأهداف التى قامت من أجلها ، والتى يمكن أن نطلق عليها اسم برنامجها النظرى ، حتى تبلور فكر الثورة اخيرا فى دليل عمل ، هو ميثاق العمل الوطنى وبرنامج ٣٠ مارس ومواثيق الثورة التى قد لا تعتبر فلسفة نظرية متكاملة ، ولكنها فى النهاية تعبر عن خطوط واضحة لبرامج سياسية واجتماعية تتحرك الثورة من خلالها وتنمو بها ..

بدأ التحول الاجتماعى ، وتغير الهيكل الاقتصادى للمجتمع المصرى ، قبل أن يصدر الميثاق ولقد واجهت عبد الناصر منذ البداية مشاكل الاستقلال الاقتصادى ، والتنمية ، وواجهته مشاكل الاستغلال ، ومعدلات النمو البطىء فى الاقتصاد المصرى ، والفقر المدقع لغالبية السكان يتزايدون بدون حساب ، والثراء الفاحش

الذى تعيش فيه قلة ضئيلة من السكان استطاعت أن تنمو بشكل مذهل ، حتى خلال السنوات الأولى من الثورة ، وكان الحل الاشتراكى هو المخرج الوحيد للقضاء على مشاكل التخلف .. وتحقيق اقصى قدر من التنمية السريعة المصحوبة بالعدل الاجتماعى، وصدرت قوانين يوليو الاشتراكية عام ١٩٦١ ، تحمل بذورا جديدة وتضع إسسا متينة للتغيير الثورى فى مصر ، وبعدها جاء الميثاق كدليل للعمل الوطنى خلال مرحلة زمنية محددة ، بثمانى سنوات على ان يعاد النظر فيه سنة ١٩٧٠ ، على ضوء تقييم التجربة والمتطلبات التى تظهر من خلال هذا التقييم ..

فى تلك الفترة قامت فى مصر لاول مرة محاولة جادة لتحديد قوى الثورة وقوى الثورة المضادة ، وهى ما اطلق عليه عبد الناصر فى تلك الفترة « الشعب ، واعداء الشعب » بعد أن تغير التركيب الطبقى للمجتمع ، واذا كان التنظيم الجديد والثالث للثورة وهو الاتحاد الاشتراكى قد اتجه الى فكرة التحالف والتجمع الوطنى أيضا ، فانه فى هذه المرة اختلف بأن حدد فئات بعينها أبعدهم عن صفوفه ، ومن بينهم الذين اممت لهم ممتلكات أو أسهم ، والذين فرضت عليهم الحراسة ، أو انطبق عليهم قوانين الاصلاح الزراعى، أو الذين ساهموا فى افساد الحياة السياسية الى غير ذلك ..

ووضعت للاتحاد الاشتراكى العربى أهداف أساسية كتذويب الفوارق بين الطبقات وقيادة الصراع السلمى بين الجماهير حتى يتحقق التحول الاشتراكى ، وتحقيق الديمقراطية السليمة ، والثورة الاشتراكية ، ودفع امكانيات الثورة لصالح الجماهير ، وحماية المكتسبات التى قررها الميثاق لجماهير العمال والفلاحين ، والنضال ضد تسلل النفوذ الأجنبى والانتهازية والرجعية ثم اسقاطها ، ومقاومة السلبية والانحراف .. واخيرا نقل السلطة تدريجيا الى المجالس الشعبية المنتخبة ..

عيوب الاتحاد الاشتراكي :

ويجب الا نغفل ان عبد الناصر اعلن قيام هذا التنظيم ، وهو في قمة السلطة ، وهو ايضا في قمة التفاعل مع الجماهير العربية العريضة ، بعد أن اكتسب زعامة العالم العربي بغير منازع ، لما حققه من انجازات في مصر والعالم العربي ، ولموقفه الواضح والمحدد في مواجهة قوى الامبريالية والاستعمار العالمي ، فقد تبلورت فيه امنيات التخلص من سنوات العذاب والظلم والقهر التي عاشها العالم العربي ..

وكثيرا ما يكون القرار ثوريا في القيادة ، ويظل يفتر في الأيدي التي تتلقفه بعد ذلك حتى تعترضه الاجراءات البيروقراطية ، وتفرغه من مضمونه ، ومن محتواه ..

وذلك ما حدث عند بداية بناء تنظيم الاتحاد الاشتراكي ، حيث حشدت اجهزة السلطة الجماهير ليقيدوا اسماءهم كأعضاء فيه ، وظنا من بعض الأعيان والوجهاء في القرى بأن هذا الاتحاد سيكون وسيلتهم لتحقيق أغراضهم ، فقد زايدوا في ملء استمارات العضوية للفلاحين وزوجاتهم ليكونوا اعضاء في التنظيم يضمنون اصواتهم للحصول على مقاعد في قيادة هذا التنظيم الجديد ، وكان الى جانب هؤلاء جموع من الفلاحين ومن العمال ، ومن المثقفين الواعين المخلصين الذين سارعوا في الانضمام الى التنظيم الجديد آملين أن يجدوا فيه وسيلة للعمل السياسي بين الجماهير .

وانصافا للحقيقة ينبغي ان نقول أن جمال عبد الناصر عندما اعلن من فكرة قيام الاتحاد الاشتراكي تصور أن يكون عدد اعضائه حوالي خمسين الفا فقط ، أو هكذا حدد وكان لابد من وضع معايير لاختيار الأعضاء ، ولكن ذلك لم يحدث ، فقد واجهته ضغوط لزيادة العدد فابناء بور سعيد مثلا ، وكانوا قد خرجوا من معركة ضارية

اثناء العدوان الثلاثى ، قالوا : لماذا نحرم جميعا من الانضمام لهذا التنظيم الجديد ، وقد دفعنا دماءنا فى صد العدوان وخضنا معارك بطولية مع الثورة .

فلم تكن صورة الاقبال اذن ، هى الوسائل والضغوط التى مارسها صغار الموظفين وكبارهم فى الأقاليم ، ولا الأعيان وبقايا الاقطاعيين فقط ، بل كان هناك كثير من الاندفاعات الحقيقية الصادقة للمساهمة فى البناء الجديد ، بجد واخلاص ، وهو الأمر الذى دفع الى كسر قاعدة قبول عدد محدود فى الاتحاد الاشتراكى، وفتح بابه على مصراعيه لكل من يريد من الفئات صاحبة المصلحة فى الثورة ، بعد أن عزلت القوى المضادة وفقا لما نص عليه قانون العزل السياسى ..

ولو ارادت الثورة فى ذلك الوقت ان تختار الاعضاء « الخمسين الفا » الذين حددهم عبد الناصر ، لوقعت فى مشكلة أكبر فلم تكن هناك معارك نضالية خاضتها الجماهير — فيما عدا معارك تأكيد الاستقلال الوطنى والعدوان الثلاثى — يمكن أن تفرز قيادات جماهيرية على مستوى مصر كلها تتصدى للعمل الوطنى والسياسى فضلا عن أن رد العدوان كان حتى ذلك الوقت معركة وطنية يشترك فيها كل المصريين المؤيدين للثورة والرافضين لها ..

فالعدوان وقع على أرض مصر ، ومن واجب المصريين جميعا على اختلاف ميولهم ونوازعهم السياسية أن يشاركوا فى الدفاع عن أرض بلادهم ..

واعتقد ان الصورة ربما كانت تختلف لو ان القوانين الاشتراكية كانت قد اعلنت .. فهذه القوانين حددت بوضوح اكبر ، القوى صاحبة المصلحة حتى فى ردع العدوان الخارجى دفاعا عن أرضها ومصالحها ..

لم يحدث ان وقعت الثورة فى هذا المأزق ، مأزق اختيار الأعضاء المحددين لعضوية التحالف الجديد .. فقد استجابت للضغوط المختلفة بفتح باب العضوية على مصراعيه ..

ومن هذه الثغرة استطاع أصحاب الأغراض الخاصة ان ينفذوا الى الاتحاد الاشتراكى وان يقودوا عددا كبيرا من الناس الى قيد اسمائهم لعضويته ..

وفجأة أصبح الاتحاد الاشتراكى يضم بين خمسة وستة ملايين من المصريين ، وكان يمكن أن تكون تلك ظاهرة صحية ـ كما قلنا ـ فنحن لا نقيم حزبا موحد الفكر ، وانما تحالفا عريضا يجمع بين فئات الشعب الخمس ، ويمكن أن يكون انضمام الملايين الى هذا التحالف دافعا لامكانيات الثورة ، لو انهم ذهبوا بارادتهم للانضمام عن وعى بأهداف الاتحاد الاشتراكى ، وما يمكن ان يحققوه من خلال عضويتهم ، والا ترتبط عضوية الاتحاد الاشتراكى فى ذهنهم بتسهيل الحصول على المواد التموينية أو تولى الوظائف ، أو عضوية الجمعيات التعاونية وغيرها من الوظائف التى اشترط القانون عضوية الاتحاد الاشتراكى لتوليها ، مما كان دافعا الى مزيد من الاقبال على طلب العضوية ..

وكان هذا العدد الهائل فى حد ذاته يكرر صورة التنظيمين السابقين ، والاختلاف الوحيد ـ من حيث القوة العددية ـ هو أن قوى الثورة قد تبلورت بشكل محدد وواضح ، وأنه قد وضع أمام التنظيم الجديد برنامج محدد للعمل الوطنى والاجتماعى ينطلق العمل على أساسه ، وان عناصر من أفراد الثورة المضادة لم يسمح لهم بالعضوية وان استطاعوا ان يتسللوا عن طريق اقاربهم وأتباعهم أو حتى عن طريق أفكارهم التى دفعوها الى داخل التنظيم الجديد.

فالقوى المضادة للثورة فى حقيقة الأمر لم تكن غائبة عن الاتحاد

الاشتراكى ، ولا مقاطعة له ، الا فى الحدود التى لا تتعارض مع النصوص الواضحة من قانون العزل السياسى الذى صدر فى يناير ١٩٦٢ قبل صدور ميثاق العمل الوطنى .

الجهاز السياسى .. لماذا :

ويبدو أن عبد الناصر كان يعرف منذ البداية ما سيحدث وأن تحالفا واسعا عريضا لا يمكن وحده ان يقود الجماهير فى معارك البناء والتنمية وفى معارك الديمقراطية وتأكيد سيادة القانون والرقابة على كل الأجهزة التنفيذية ، ويبدو أنه كان يعرف أيضا أن قوى معينة يمكن أن تتسلل الى التنظيم الجديد رغم الضمانات التى وضعها ومن أهمها أن تكون نسبة ٥٠٪ من المقاعد فى الاتحاد الاشتراكى وغيره من التنظيمات الشعبية للعمال والفلاحين كحق لهذه الفئات صاحبة المصلحة فى الثورة فى أن تحتل مكانها ، وتعبر عن مصالحها باعتبارها الأغلبية الساحقة للشعب المصرى .

ادراك عبد الناصر لهذه الحقيقة هو الذى جعله ينص فى الميثاق على ضرورة «خلق جهاز سياسى جديد داخل اطار الاتحاد الاشتراكى العربى يجند العناصر الصالحة للقيادة وينظم صفوفها ، ويبلور الحوافز الثورية للجماهير ، ويتحسس احتياجاتها ، ويساعد على ايجاد الحلول الصحيحة لهذه الاحتياجات » ..

وكان التنظيم الطليعى داخل الاتحاد الاشتراكى الذى أوكلت اليه هذه المهمة ، وقد بدأ تكوينه كنواة لحزب سياسى ، هو الحزب الاشتراكى كما وصفه عبد الناصر .. اذ كان يعد هذا التنظيم ليكون الحزب السياسى للثورة ..

ولم يكن هذا التنظيم الذى كونه عبد الناصر سريا فقد تحدث عنه فى مؤتمر المبعوثين وفى عديد من خطاباته العلنية المذاعة على كل الناس .. فكان الناس يعرفون أن هناك تنظيما كونه عبد الناصر

ولكنهم لا يعرفون اسماء اعضائه الذين راي عبد الناصر اخفاءهم !! لاعتبارات اعلنها فى مؤتمر المبعوثين من بينها حماية الاعضاء من ان تتكتل فى مواجهتهم القوى المضادة ، وحماية المجتمع من ان يستغل أعضاء الجهاز السياسى مواقعهم ..

والمفروض ان التنظيم الجديد هو تنظيم ملتزم نشيط ، متوحد الفكر ، يقود الاتحاد الاشتراكى والجماهير حول اهداف الثورة الاجتماعية ، ويجند امكانياتها لخدمة البناء الاشتراكى ..

ووثائق هذا التنظيم الطليعى لم تعلن بعد ، لذلك فانه من الصعب الافاضة فى الحديث عنه أو تقييم تجربة قيامه .. سلبياتها وايجابياتها ، وهل كان هذا التنظيم انعكاسا للتحالف ولتناقضات الاتحاد الاشتراكى وعلى أي الأسس والمعايير كان يتم اختيار اعضائه ، وماذا استطاع أن يحقق .. تلك كلها أسئلة لابد من الاجابة عليها بوضوح ، قبل أن نصدر الحكم على هذا التنظيم .. له أو عليه ..

سلبيات الاتحاد الاشتراكى :

كانت هذه محاولات عبد الناصر لاقامة تنظيم سياسى فى مصر ، وسوف يظل ، ومن ابرز سلبيات عبد الناصر أنه لم يقم هذا التنظيم القوى ، الذى يشارك بايجابية اكثر فى اتخاذ القرار ويخوض معركة بناء الاشتراكية ، وتحقيق اهداف الثورة التى تبلورت فى ثلاثة أهداف رئيسية هى : الحرية والاشتراكية والوحدة ..

ولو اقيم تنظيم فعال يشارك - اكثر - فى العبء فكرا ورأيا وعملا تنبثق عنه القرارات ، ويبلور آمال الجماهير لاستطاع أن يقود التطبيق بأقل قدر من الأخطاء ، وأن يكون عين الشعب الواعية لحماية ثورته ، ومنجزاته ، والتصدى لكل محاولات التخريب التى قامت من داخل التجربة ذاتها ، ولاستطاع هذا التنظيم أن يفرق

الكوادر الفنية والادارية المدربة التى تقود العمل التنفيذى والسياسى فى مختلف الميادين ، ولاستطاع ان يواجه انحرافات أجهزة الأمن ، وغيرها من اجهزة السلطة التى ارتكبت اخطاء كان يمكن الا تقع فى ظل وجود رقابة شعبية أمينة ومخلصة وقادرة .

لقد كان عبد الناصر يطبق افكاره ، باشخاص لا يؤمنون بها ، وبعضهم لم يكونوا متعاطفين معها ، حتى مجرد تعاطف بسيط ، وهو امر ثبت بما لا يدع مجالا للشك بعد رحيله ... فمعظم المعاول التى انهالت على التجربة تجريحا ، ونقدا ، بل ومحاولة للهدم ، اصحابها أشخاص لم يكونوا بعيدين عن التجربة ، بل ان بعضهم كان يحتل أيام عبد الناصر مواقع تنفيذية هامة . !

وفئات الادارة العليا التى استفادت من التأميم ومن الاشتراكية ، وورثت الطبقات السابقة عليها وحلت مكانها ، وراحت تطالب بامتيازاتها ، كثيرا ما سمع صوتها ، ولبى نداءها بحجة انها تقود العمل والانتاج ..

وفئات من الفنيين والاداريين استطاعوا أن يحصلوا على مكاسب ضخمة ، وتحولت معظم المنجزات لصالحهم ، ولم يكونوا راضين ، ولا مخلصين لأنهم كانوا يطمعون أن يحلوا مكان الفئات العليا السابقة ..

ومع ذلك فهم الذين حققوا اكبر قدر من الاستفادة ، وهم الذين امتصوا معظم الخدمات ، وكانت مشكلاتهم بارزة على صفحات الصحف ، واذكر أن الصحف كانت تناقش مثلا ازمة اللحوم وارتفاع أسعارها ، فى الوقت الذى اختفت فيه من ريف مصر الذرة الصفراء وهى الغذاء الرئيسى للفلاحين ، ولم نجد صوتا قويا فى الصحف يعبر عنها .

ووجود التنظيم السياسي الواعي والمتحرك والقادر كان كفيلا

بحل كل المشاكل ، وبتحقيق أكبر قدر من الديمقراطية ومن الرقابة الشعبية على مختلف الأجهزة التنفيذية .. ولا نستطيع — موضوعيين — أن نقول أن هذه الرقابة لم تتحقق نهائيا ، فقد كانت هناك قوى ثورية واعية بين مختلف فئات الشعب ، راقبت ، وكشفت وحاولت الحساب ، ووصلت أحيانا الى ما كانت تأمله من نتائج ، ولم تصل فى كثير من الأحيان ..

ولا نستطيع — موضوعيين — ان نقول أن تجربة عبد الناصر قد صادرت الديمقراطية وأن عبد الناصر انفرد باتخاذ القرار فى كل الظروف ، فقد كان هناك مجلس أمة منتخب حتى ولو كان البعض يدعى أن انتخابه صوريا — وهذا غير صحيح — الا أنه كان يمثل ٣٦٠ عضوا ، لكل منهم رأى ، واستطاع المجلس الذى رأسه الرئيس السادات أن يرسى قواعد ديمقراطية ولكنها ديمقراطية اشتراكية ملتزمة بأهداف محددة ، وليست ديمقراطية ليبرالية تهدف الى حرية الكلام والنقد ، بما يعيد المجتمع الى ما قبل يوليو ، وكانت هناك أخيرا لجنة مركزية دائمة الاجتماع ، ولجنة تنفيذية عليا تتحمل جزءا من المسئولية ، ومؤتمر قومى ينعقد كل ثلاثة شهور .. ومارست الصحافة النقد على نطاق واسع وكبير ، بعد أن حررها عبد الناصر من السيطرة الرأسمالية ، وأنبعها لتحالف قوى الشعب ، والذين كانوا حريصين على قيام التجربة ونجاحها كانوا أكثر الناس تصديا للخطأ وكشفا للانحراف ، والذين يهاجمون التجربة الآن ويحاولون تخريبها وتحطيمها كانوا أكثر المادحين لها ، فلم يروا فيها أخطاء ولا انحرافات ، بل كانوا يحرقون لها البخور ويسبحون بحمدها ليل نهار ..

فقد تحولت هذه اللجان الى منابر للنقد ، فى كل مكان وخاصة بعد نكسة ١٩٦٧ ، ثم صدر برنامج ٣٠ مارس الذى طالب بالتغيير والذى جاء استجابة لطلبات الجماهير ..

ومارست لجان الاتحاد الاشتراكى النقد على نطاق واسع ، فقد تحولت هذه اللجان الى منابر للنقد ، فى كل مكان ..

ومن سلبيات التجربة عدم اهتمام الاتحاد الاشتراكى بمواجهة الأخطاء التى تحدث عنها الأعضاء مواجهة حاسمة تقضى عليها ، بل ان البيروقراطية وصلت الاتحاد الاشتراكى ذاته وهو الجهاز الذى قام ليقضى عليها كلها ..

وتحول عدد من قيادات الاتحاد الاشتراكى على مختلف المستويات الى قيادات مكتبية تتلقى أوراقا ، وتوقع عليها .. وتطلب مزيدا من البيانات .. وعندما توضع المشاكل على الورق وتسافر الى المسئول ، فانه كثيرا ما تفقد المشكلة حرارتها وحدتها ، وتتحول الى مجرد ورقة لا تتنفس داخل دوسيه يختنق بالأوراق ..

ولو كانت هناك استجابات فورية لكل نقد فى الصحف أو فى لجان الاتحاد الاشتراكى لأحست الجماهير بالمشاركة الفعلية ولقضى على كثير من المثالب والسلبيات ..

فوجود التنظيم السياسى القوى والفعال ، الذى يعطى صلاحيات واسعة للعمل والانطلاق هو الضمانة الوحيدة والأساسية لدفع اية تجربة ثورية الى الأمام ..

على أن عبد الناصر كان قادرا على ايجاد هذا التنظيم بالرغم من الصعوبات العديدة التى تحيط ببنائه ..

ولكنه لم يفعل ، وان كان قد اشار أكثر من مرة الى أهمية وجوده ، والى ايمانه به ، الى الحد الذى جعله يعلن أكثر من مرة انه ينوى أن يتفرغ نهائيا للاتحاد الاشتراكى العربى وأعد له مكتبا فيه ، بل وزوده بغرفة نوم ، لأنه كان يريد الاقامة الدائمة ، وتخصيص كل وقته لبناء هذا التنظيم ..

وربما كانت ظروف عدوان ١٩٦٧ هى التى أخرت قيام عبد الناصر بهذه الخطوة حيث كانت أمامه مهمة عاجلة واكثر الحاحا ، وهى اعادة بناء القوات المسلحة فبذل فيها جهده الشاق والمضنى اعدادا ، وتدريبا ، وتزويدا بأحدث الأسلحة ، الأمر الذى مكنها من أن تخوض معارك حرب الاستنزاف ، وأن يكلل هذا الجهد بانتصارات ٦ أكتوبر ، التى بدا الاعداد لها ، منذ ١٠ يونيو ١٩٦٧ ..

الأخطاء .. ومسئولية عبد الناصر :

الفراغ النسبى الذى عاش فيه العمل السياسى فى مصر ، كان مسئولا عن كثير من الأخطاء ، وكان ايضا مسئولا عن عدم مواجهة هذه الأخطاء ، وعن تفاقمها فى بعض الأحيان ..

ولعل عبد الناصر ـ وهو يريد أن يؤكد فكرة التحالف عمليا ، فلم يغلب اتجاها على آخر ، كان معوقا لاختصار مرحلة التحول الاشتراكى ، فلم تكن قيادات الاتحاد الاشتراكى ولا القيادات فى المواقع التنفيذية الكبرى على مستوى واحد من التفكير ، بل أن بعضها كان يمثل شرائح رافضة للتجربة الناصرية بحكم مصالحها ، فعبد الناصر الذى قال « **أن الاشتراكية لا يبنيها الا الاشتراكيون** » هو نفسه الذى استعان فى عدد من مواقع المسئولية والعمل بقيادات لا نقول أنها ليست اشتراكية ، بل انها تعادى الخط الاشتراكى تماما ..

وعندما يكون الانسان غير مؤمن بالعمل الذى يؤديه ، غير راغب فيه ، بل انه يرفضه فماذا ننتظر الا ان يشوه هذا العمل ، ويمسخه ، ويحوله لخدمة اغراضه الشخصية .

وفى بعض مواقع الانتاج كانت صور الانحراف بارزة ، والاسراف واضحا ، والفساد مستترا ساعة ، وسافرا ساعات ، وبمنطق عبد الناصر بأننا رحماء « **فنحن قادمون من بنى مر** »

ولسنا قادمين من شيكاغو » بهذا المنطق الذى ســــاد ، وقعت اخطاء ، وكانت العقوبة فى بعض الأحيان أقل من الجرم بكثير .

لقد كان المنطق الذى يسود هو أننــا فى مرحلة تحول يختلط فيها الجديد بالقديم ، ولم نتم بعد البنــاء الاشتراكى ، وكثير من المثالب تصاحب التحولات الكبرى فى المجتمعات لأنهــا اساسا من طبيعة مراحل التحول ، ولأن التنظيم السـياسى كان غير فعال ، وغير مؤثر بدرجة كافية ، فى رقابته وممارســته للديمقراطية فقد دارت فى كواليس اجهزة الأمن كثير من الأخطاء التى كانت ترفضها حتى انسانية عبد الناصر وانحرفت بعض هذه الأجهزة ، ونمت فى غيبة الأجهزة السياســية ، وانتشرت ، ونشرت الخوف فى نفوس الكثيرين ..

كان عبد الناصر يشجع الكلمة ، وكانت بعض الأجهزة تحاربها .. كان عبد الناصر يريد للنــــاس أن تتحرك وتتكلم ، وتنقــد وتشارك ، وكانت هذه الأجهزة بما نشرته حول نفســها من هالات الخوف ــ ربما أكثر من حجمها ــ لا تريد للنــــاس الا أن تصمت وتســكت .

ومع ذلك فانه لا يمكننا أن نبرأ حكم عبد الناصر من مسئوليته عن ذلك ..

اننا ونحن نرصــــد السلبيــات لا بد أن نقرر أيضا أن تغيير المجتمع واعادة بنائه الاقتصادى على اسس جديدة ، كانت تصدر بقوانين علوية ، صحيح أنها استجابت لآمال الجماهير ومطالبهــا الملحــة ، بل ولانتفاضاتها التى بدأت قبل الثــورة ، ولكن هذه الجماهير لم تناضل كلها على مستوى واحد للحصول عليها ..

وعندما نرجع الأشياء الى منابعهـــا الصحيحة ، يقول انه فى غيبة التنظيم السياسى الديمقراطى القوى يمكن أن يحدث كل شىء بل انه اذا لم تحدث اخطاء يكون ذلك غريبا ... وشاذا ..

عبد الناصر .. فى القرية :

هذه بوضوح هى ابرز سلبيات تجربة عبد الناصر ـ ان لم تكن كلها ـ دون اخفاء لأية حقيقة .

وهذه السلبيات لا يمكن ان تطغى على الانجازات الهائلة التى حققها عبد الناصر على المحيط المحلى والداخلى فى مصر ..

فالى جانب هذه الأخطاء ـ التى قد يقف التاريخ عندها او لا يقف ـ غير عبد الناصر خريطة المجتمع المصرى ، هيكله الاقتصادى والسياسى .. وزع عبد الناصر الأرض على المعدمين وكان بعيدا حتى عن مجرد أحلامهم ان يتحولوا الى ملاك ..

بعث فى مصر قضية العمال الزراعيين الفئة التى عاشت سنوات عمرها فى قاع القاع من المجتمع الريفى ، والذين افتقدوا دائما الصوت العالى الذى يرتفع من أجلهم فكان هذا الصوت هو صوت عبد الناصر اول من نبه الى قضيتهم وجعلها تطفو على السطح ، وخلق لهم كيانا عماليا نقابيا لأول مرة فى تاريخ مصر الطويل .

جعل حق الفلاح فى زراعة أرضه ، وتأمينه على عمله فى الأرض ، عاملا أو مستأجرا ، حقا ثابتا لا ينازعه فيه أحد ، وحدد له القيمة الايجارية بسبعة أمثال الضريبة بحيث لا يرهقه المالك الكبير ، ويمتص دخله فيطرده اذا لم يستطع ان يدفع الايجار مما كان يضطر الفلاحين الى الاستدانة بعد عرقهم طوال العام .. ليسددوا ايجار الأرض .. وكان هذا من اخطر قرارات الثورة بل انه اهم من تحديد الملكية الزراعية ذاتها حيث استفاد منه ـ وما يزال ـ الملايين ..

زرع فى القرية التعاونيات الزراعية التى تخدم الفلاح انتاجا وتسويقا ، وتبعد عنه شبح المرابى ، والتاجر الجشع ، الذى يحمل المحصول ويعود اليه فائض عمل الفلاح ، وناتج جهده . واقام تجربة رائدة ونامية لم تتح لها الفرصة لكى تكتمل للتجميع الزراعى ..

غرس فى اربعــــة آلاف قرية مجالس تدير القـــرى ، وتحل مشاكلها ، فى محاولة لجعلها كيانات مستقلة اداريا ، وليبعـد عن القرية شبح الفرد الحاكم المستغل .

بذر فى آلاف القـرى والعـزب والنجـوع لأول مرة مدارس بلا عدد ، متنوعة تتدرج من المرحـــلة الابتدائية حتى الثــانوية والفنية ، ومعها وحدات صحية ريفية تخدم الفلاح ، وتوصل اليه العــلاج كشـفا ودواء بالمجـان ، وفى ظروف ميسرة فى متناول كل فــلاح ..

نشر عبد الناصر أعمـدة الكهرباء فى كثير من القرى المصرية ، فأضاءت ووضع خططا لانارة كل قرى الريف بكهرباء السد العالى عندما يتم انجازه ، وأوصل المياه النقية الى آلاف القرى والعزب والكفور ، ولم يعد الفـــلاح المصرى يشرب من الترعة ، كما كان طوال خمسة آلاف سنة بل وجد ماء نقيا تحمله الأنابيب الى أغلب القرى المصرية ..

عبد النــاصر .. فى المدينة :

هذا هو عبد الناصر فى القرية المصرية .. ولم يكن عبد الناصر فى المدينة مختلفا عنه فى القرية ..

أكد عبد الناصر على اســتقلال المحافظات ، وان تتولى ادارة نفسها ، ونقل اليها معظم السلطات المركزية من القــاهرة ، ونقل الى المدن سلطات المحافظة ، وانشــأ فيهــا مجالس مدن تتولى ادارتهـــا ..

نشر فى المدن المصرية جامعات ، ومعاهد عليا وتعليما فنيـــا ، ومكن لأبناء العمّال والفلاحين من ان يكونوا هم بناة مصر الغـد ، عندما حقق المجانية الكاملة للتعليم على كل المستويات ليتمكن أبناء الفئـــات المسحوقة من أن يتموا تعليمهم ، حتى لا يكون الجهـل

ارثا والفقر ارثا . ووضع امامهم الفرصة المتكافئة فى التعليم الجامعى عن طريق اشتراط المجموع كأساس للقبول بالكليات .. حتى ابنة عبد الناصر لم تحصل على مجموع يؤهلها للالتحاق باحدى كليات الجامعات المصرية ، فلم تلتحق بها ..

اقام عبد الناصر آلافا من المساكن لمحدودى ومتوسطى الدخل واصدر قوانين تخفض ايجارات المساكن ، ووضع حدا لاستغلال الملاك ، ولتأكيد حقوق ملايين السكان فى مواجهة جشع بعض أصحاب العقارات ..

وكان الاهتمام واضحا بقضية الخدمات ، ليس فى العاصمة وحدها ، بل وفى سائر مدن مصر ، ولكن الخدمات لم تكن لتستطيع مواجهة متطلبات الجماهير المتزايدة ، بعد أن ارتفع مستوى المعيشة ووصل حدا لم يبلغه من قبل .. ولم توضع الخطط الكافية للنهوض بكثير من المرافق ..

العلم .. والتخطيط :

وعبد الناصر هو الذى قدر العلم والعلماء ، وهو اول من ادخل فكرة التخطيط العلمى فى مصر - بل وفى العالم الثالث كله - وانشأ له وزارة ، وانشأ اكاديمية للبحث العلمى ، وألح على ضرورة دخول مصر عصر الصواريخ .

وكرم عبد الناصر العلماء والأدباء والمثقفين واقام لهم عيدا سنويا يحتفل هو بنفسه بهم ومعهم .. جوائز عديدة ومادية وادبية قدمتها دولة عبد الناصر لأدباء مصر ومثقفيها وعلمائها وأوائل طلبتها ..

وانشأ عبد الناصر مؤسسات واسعة للثقافة الجماهيرية .. قصور للثقافة فى كل المدن الكبرى حتى لا تحتكر العاصمة الثقافة والى جانبها اقيمت لأول مرة مؤسسة حكومية لنشر الكتاب

وتشجيع الثقافة الجـــادة ، ومؤسسة السينما والفنون أنتجت العديد من الأفلام ، وأقيمت عشرات المسارح التى تقدم الفن الراقى.

وفى عصر عبد الناصر برز جيل من الادباء ، والعلماء والمفكرين والفنانين ما زال يعيش حتى اليوم ملء السمع والبصر .. وبعض أفراده هم الذين انهالوا على عصر عبد الناصر .. ذلك العصر الذى أصبحوا روادا خلاله .

اقام عبد النـــاصر خمســـمائة مصنع كبير أصبحت تلبى الاحتياجات المصرية وتصدر بعض منتجاتها الى الخارج ، وحققت مصر الاستقلال الاقتصادى والاكتفاء الذاتى ، فى كثير من الأحيان، وكانت هذه المصانع هى سند مصر فى صمودها الاقتصادى ، طوال سنوات الحرب القاسية ، وبعد أن كانت الصناعة الوحيدة النامية فى مصر هى الغزل والنسيج ، أصبحت مصر تصنع السيارة والحديد الصلب والألمنيوم وخامات الدواء وغيرها من الصناعات الثقيلة الى جانب عربات السكة الحديد ، وكل مستلزمات المواطن العادى ومستلزمات الدولة .. صناعات ثقيلة وليدة ، وصناعات خفيفة فى كل المحافظات ..

صحيح أن درجة كفاءة وجودة بعض هذه المنتجات لم تكن ــ وما زالت ــ بالدرجة المطلوبة ، ولكنها صناعات جديدة على مصر ، بأيدى عمالها المصريين ، وبخبرات فنييهـا التى يمكن أن تنمو .. وتتطور .. وصحيح أن مصر كانت ــ ومازالت ــ تعانى من اختناقات فى عديد من هذه المصنوعات ، تضطر الى استيرادها ، ولكن السؤال هو ماذا لو لم تكن هذه الصناعات قائمة فهى موجودة فعلا وانتاجها لا يكفى ؟!

ومع هذه الصناعات وجد فى عصر عبد الناصر طبقة من العمال الفنيين والمهرة ضمن لهم حقوقهم تأمينا ، ومعاشا ، وعملا بلا فصل ، ومشاركة فى الربح وفى الادارة ودعم تنظيماتهم العمالية

النقابية ، فأقيم أول اتحاد للعمال فى تاريخ مصر ، يوحد صفوف الطبقة العاملة ، ويرفع صوتها ويدافع عن مشاكلها .. وأصبح للعمال لأول مرة عيد رسمى تحتفل به الدولة كلها ، ويشاركهم فى الاحتفال رئيس الجمهورية بنفسه تقديرا منـه للطبقة العاملة ونضالها ، ودعم ذلك كله باجراءات تهدف الى التوزيع العادل للثروة الوطنية ..

خاض عبد الناصر مع الشعب المصرى معركة ضارية لبنـاء السد العالى .. وبنى الشعب المصرى بأيدى عماله ، وبخبراته ، أضخم السدود المائية فى العـالم ، وأكثرها تعقيـدا ، وحول عبد الناصر مجرى نهر النيل ، ليعطى حيـاة لملايين المعدمين .. بأرض جديدة تستصلح ومصانع جديدة تقـام .. ومزارع عديدة تنتشر بها الخضرة تغطى سطح الصحراء القاحـلة ، وسوف يظل السد العالى مئات السنين هرما جديدا يشهد لعبـد النـاصر بالعظمة ، وللشعب المصرى بأنه خاض أقسى معـاركه فى سـبيل اقامة هذا الصرح ، الذى لم يمهل القدر عبد الناصر لكى يفتتحه بنفسـه ..

اهتم عبد الناصر بالدين فطور الأزهر ، وأنشأ اذاعة للقرآن الكريم وجعل الدين مادة اجبارية فى المدارس ، وبنيت فى عصره مساجد تساوى ضعف عدد المساجد التى بنيت فى مصر منذ عرفت الاسـلام ..

اخرج عبد الناصر المرأة من زوايا الاهمال ، وحسم المناقشات التى استمرت قرونا حول حقها فى المسـاواة بالرجل ، فأكد هذا الحق عمليا ، ففى عصر عبد الناصر منحت المرأة حق الانتخاب لأول مرة ، وفى عصره مارست هذا الحق ، وأصبحت نائبة منتخبة فى البرلمان ، وفى عصره أيضا كانت أول وزيرة امرأة فى تاريخ مصر ، وفى عصره خرجت للعمل مئات الآلاف من العاملات والموظفـات ،

ودخلت الآف الطالبات كل معــاهد العلم ، واقتحمت المرأة كل معاقل العمل ، والعلم باصرار وعناد .

هذه هى ابرز ملامح تجربة عبد الناصر التى شهدتهــا أرض مصر العربية .. سلبيات وايجابيات .

والتقييم العلمى والموضوعى لا يمكن أن يتجاهل أيا منهمــا ، ولا يمكن أن يتجاهل الظروف التى كانت تتم فيها كل هذه المعارك للبناء فى الداخل ، وامكانيات الدولة ، والمواءمة بين هذه الامكانيات والمتطلبات وما تفرضــه الالتزامات المبدئيــة على مصر عربيــا ودوليــا ..

والتقييم العلمى والموضوعى يقول ان مصر شهدت ثورة غيرت الكثير من ملامح المجتمع وولدت مجتمعا جديدا ، وولادة المجتمعات لا تتم بسهولة ، فلا بد أن يسقط شهداء ، وصرعى بعضهم أبرياء وبعضهم مذنبون تلك طبيعة الثورات الانسانية كلها ..

ولقد كانت ثورة عبد الناصر بيضاء ، لم يسقط فيها شهداء ، وان كان لها ضحايا « وجرحى » ربما بعضهم مظلومون ، وأى ظلم هو خطأ يجب أن نعترف به وأن نحاول تقويمه واصلاحه كلما امكن ذلك .. والا نتجاهله .. ولكن هل يشوه ذلك تماما وجه ثورة غيرت معالم تاريخ العالم العربى ، وخلقت النموذج الذى تبعته كثير من دول العالم الثالث ، وفتحت أبوابا هائلة للتقدم والنمو امام المواطن المصرى ، والعــــربى ، وهل سيقف التاريخ كثيرا عنــــد هـــذه السلبيات ، وما هو مقياسها وحجمها فى عصر عبد الناصر ، مقارنة بالانجازات الهــــائلة التى تحققت فى مصر .. وبالتحولات الكبيرة الضخمة التى أحدثها فى المنطقة العربية ، وبالتغييرات الجمة التى احدثها فى دول العالم الثالث ، وببصماته فكرا وعملا التى تركها على العالم أجمع .. هذا هو السؤال الذى ينبغى أن نجيب عليه

بموضوعية .. وبعيدا عن التأثيرات الذاتية أو المصلحية .. أما أن نشوه كل شيء وننهال بالمعاول على كل انجاز ، فنحن فى الواقع لا نفيد الا أعداء مصر وأعداء العرب وأعداء التحرر لأننا نهدم جزءا هاما من تاريخ مجتمعنا ، ونشوه صفحات ناصعة من حياتنا ..

اننا لا نستطيع أن ننهش السنوات السابقة على الثورة ونصفها ـ رغم ما فيها من أخطاء ـ بأنها كانت كلهـا ظلاما ففى هذه السنوات تمت انجازات كبرى ، وتحولات ضخمة ..

كان هناك سلبيات نعم .. وكان هناك ايجابيات أيضا ..

وفى عصر عبد الناصر كانت هناك ايجابيات كثيرة وسلبيات محدودة جدا ، وربما كان بعضها قاسيا رغم صغر حجمه ولكن علينا أن نتعاون مخلصين فى القضاء عليها وفى دفع التجربة ثوريا الى الأمام ، لتحقق أهدافها فى خدمة الملايين من ابنـاء الشعب المصرى .. مزيدا من العـدل .. مزيدا من الديمقراطيـة .. مزيدا من التقدم .. من أجل اتمـام البنـاء الذى بدأته ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

معركة المخابرات الأمريكية

كانت معركة بناء السد العالى من أخلد معارك عبد الناصر.. فهى فى حقيقتها معركة ضد المخابرات الأمريكية ..

من اجل بناء السد هذا حمل الشعب المصرى السلاح ، وخاض الحرب .. وانتصر ، وبنى سده العالى ..

وكانت حرب السويس ـ فى العالم كله ـ فاصلا بين عهدين .. عهد ما قبل السويس .. وعهد ما بعد السويس ..

وكانت حرب السويس ، التى كانت فى حقيقتها معركة من اجل بناء السد العالى فاصلا بين عهدين فى مصر .. عهد ما قبل حرب السويس .. وعهد ما بعد حرب السوبس على مختلف المستويات الاقتصادية والسياسية ..

ورغم أن السد العالى قد حقق حتى الآن ما يفوق كل تكاليفه كما قال الرئيس السادات الا أن الحملة عليه مازالت مستمرة ..

لقد خاضت المخابرات الأمريكية معركة السد العالى وهى واثقة أنه مشروع الحياة بالنسبة لمصر .

وعندما هزمت المخابرات الأمريكية فى هذه المعركة، عمدت الى سلاح الاغتيال وخططت لأغتيال عبد الناصر ، ولكنها هزمت فى تلك المعركة أيضا ..

والسطور التالية تروى قصة هذه المعـــركة .. مركزة على مشروع السد العالى ذاته . وكل ما اثير حوله من مختلف وجهات النظر الفنية ..

وهى الى جانب ذلك ، تروى اسرار هذه المعركة .. معركة بناء السد العالى .. كما كشفت عنها الوثائق ، وكما تحدث عنها جون فوستر دلاس وزير الخارجية الأمريكية .. فى مذكراته ..

ان عبد الناصر لم يرفض أن يبنى الغرب مشروع السد العالى، ولكن الغرب هو الذى رفض حتى يقضى على عبد الناصر ..

وعبد الناصر •• لم يحارب الغرب ، ولكن الغرب هو الذى بداه بالحرب .. طلب منه سلاحا فرفض .. فذهب الى الكتلة الشرقيــة يكسر احتكار الســـلاح •• طلب منـه أن يمــول السد العالى .. فرفض .. فأمم القناة .. وحمل الغرب كله السلاح حتى يبقى على القناة شركة أجنبية ، ودولة داخل الدولة .. ولكنه هزم .. وعادت القناة مصرية .. وانتصر قرار التاميم ..

ذهب عبد النــاصر الى أمريكا يطلب منهــا أن تمول بنــاء السد العالى عن طريق البنك الدولى ، وقال لسفيره أحمد حسين أنه يوافق على كل شروط أمريكا ••

ولكن دالاس .. رفض متعمدا تجويع شعب مصر .. واذلال عبد الناصر ..

وكانت المخابرات الأمريكية •• وراء كل ذلك ••

كانت تخوضها معــركة شرســـة حتى لا يقوم الســـد .. ولا يســـتمر عبد النـــاصر ••

ومازالت تخوض هذه المعركة تشــويها لهذا الانجاز الــكبير ولصاحبه وهى لا تعدم الوســائل لذلك ، وتجد بعض الغافلين او المتغافلين ـ يرددون ادعاءاتها .

من اجل ذلك كانت السطور التالية .. لتشرح هــذه المعركة .. وتتحدث بالارقام .. وبالحقــائق عن ســد مصر العالى .. وتورد مختلف آراء الفنيين والخبراء حتى مع تكرار بعضها .. وتضع أمام القارىء راى الخبراء الامريكيين والالمان والفرنسيين فى السد العالى .. وتقارير مجلس الانتاج القومى قبل بنــاء السد العالى .. والبعثات الفنية التى جاءت الى مصر ، والمؤتمرات التى عقدت فى ذلك الوقت المبكر لدراسة كل الاثار الجانبية للســد . ويحكى الكتاب اسرار معركة بناء السد العالى، وموقف المخابرات الامريكية من عبد الناصر بالتفصيل.. وبعض أسرار العدوان الثلاثى على مصر .. ولعل هذه الاسباب كلها تكمن وراء ضراوة الحملة على هذا المشروع فى محاولة لتحطيم هذا الرمز الذى ما زالت كثير من الجهات تنفث حقدها عليه ..

معركة
[illegible]
العالم

السد العالى ٠٠ فى قفص الاتهام

فجأة ٠٠ بعد سنوات من الغزل فى السد العالى ، وفى العملاق الاسمر الذى غير مجرى نهر النيل ، عاد للاستاذ توفيق الحكيم وعيه . فاكتشف أن مشروع السد العالى كان مهملا فى ادراج الحكومات السابقة على الثورة ، وأن مهندسا مصريا عارض فى انشائه فلم يسمع أحد لرأيه ولم يؤخذ به ، وتهمل آراء آلاف العلماء الذين أيدوا المشروع ، ودرسوه وخططوا له ٠٠

وقبلها ، كانت بعض الصحف الامريكية قد نشرت سلسلة من المقالات بعد وفاة عبد الناصر ضد السد العالى ٠٠ مدعية أن به خللا هندسيا ٠٠ ولها الحق فقد كانت معركة بناء السد العالى هى معركة ضد المخابرات المركزية الأمريكية خسرتها ، ولكنها تحاول بعد وفاة عبد الناصر أن تسترد كرامتها ، بتشويه هذا الصرح الكبير . الى جانب تشويه عبد الناصر طبعا . . ومن أجل تشويه عبد الناصر بدات حملة ضارية عليه ، لم تترك مسألة عامة الا وتناولتها ، ثم اتجهت الى انجازاته فى محاولة هدمها . . ومن بينها السد العالى .

ولقد بدأت الحملة على السد العالى نعاو نغمتها ، وتشق طريقها عبر قنوات عديدة . . مركزة هجومها على عبد الناصر . . لأنه قاد الشعب المصرى لبنائه .

ولأن السد العالى ، من أكثر معارك عبد الناصر شرفا ، وبطولة ، وتحديا للاستعمار ، واصرارا على البناء ، فكان لابد من هدمه وتجريحه ، خاصة وان الذى عاون فى بنائه ليس الخبراء الامريكيون ، وليس البنك الدولى ، ولكنه الاتحاد السوفيتى ٠٠ وأصبح السد العالى ، الذى تغنينا به جميعا كرمز لانتصار ارادتنا، وتحريرها أصبح هذا السد خطأ ، وخطيئة أقدم عليها عبد الناصر٠

واصبح السد العالى الذى وصفه احد الأمريكيين بأنه « سيذكر خوفو بعصر الهرم الأكبر ، وعبد الناصر بعصر السد العالى » . .

اصبح هذا السد مسئولا عن مشاكل عديدة خلفها بناء هذا الهرم الرابع ٠٠ ووقف نائب فلاح فى مجلس الشعب المصرى ، يتساءل ـ متحديا كل الأرقام ـ هل زاد الانتاج الزراعى ويجيب لا ٠٠ « فالحوائط العظيمة التى كانت تدر آلاف الجنيهات جفت واصبح لدينا عدة محافظات فى مصر ، منها محافظة الشرقية ، ومحافظة البحيرة كلها ، تعيش على البرك من المياه الجوفية » ٠٠ وصرخ النائب وكأنه يطالب بهدم السد العالى قائلا : أنه « مما يؤسف له ان بعض الأخوة مازالوا يؤيدون السد العالى بعنف » (١)

ويقف نائب آخر ليجزم بأن المشروع ليس مصريا ، وأنه ـ فى الغالب مدسوس على مصر من أجنبى دخيل غير خبير ـ فيقول : « منذ أكثر من ٢٥ عاما كان هناك شخص يدعى دانينوس والده يونانى ، ووالدته لبنانية ، وحاصل على دبلوم زراعة ، وفكر فى مشروع السد العالى وعرضه على جميع الوزارات ، ومنها وزارة صدقى باشا ، ولم يأخذ المشروع طريقة الى التنفيذ الا فى عهد الثورة ، اننى أؤكد أن هذا المشروع لم يفكر فيه مصرى ، ولم يكن مشروعا مصريا (٢) .

وتنهال بعد ذلك المدفعية الثقيلة على السد العالى ٠٠ فى محاولة ، كليا اصرار على أن تهدمه فاكتشف دكتور تاريخ بالجامعة ، أن الأرض « طبلت » بسبب كثرة المياه الجوفية ، ورداءة الصرف بعد اقامة السد العالى ٠٠ وتساءل فى محاولة لادانة المشروع « وأين اسماك بحيرة ناصر ؟ ؟ » .

واكتشف آخرون ان السد العالى كان السبب فى تلوث مياه الشرب بالقاهرة ، وليس نقص مادة الكلور ٠٠ كما ثبت من التحقيق ٠٠

من درس المشروع :

وضع السد العالى فى قفص الاتهام لأنه تسبب فى نقص الطمى ، وفى أزمة السردين وفى النحر ٠٠

(١) أحمد يونس ـ جلسة مجلس الشعب ١٦ فبراير ١٩٧٥م .

(٢) عاد مجلس الشعب لمناقشة السد أول يناير ١٩٧٨ وبعد ذلك بأسبوع .

ولابد أن تكون للسد العالى آثارة الجانبية ، التى درست مع بداية تنفيذ المشروع ٠٠ ولابد ان تعاد باستمرار دراسة هذه الاثار فى محاولة جادة للتقليل منها ، وعندما قدم مشروع السد العالى للثورة عن طريق مجلس الانتاج القومى فى سنواتها الأولى، ظل سنوات موضع دراسة الخبراء المصريين ، وبعد ذلك درسه خبراء المان ، وفرنسيون ، وأمريكيون وأنجليز . وكانت كل هذه الدول مستعدة للمعاونة فى بنائه عن طريق القروض ، ولكنها كلها وضعت شروطا ٠٠ ورفضت مصر كل الشروط واتجهت الى البنك الدولى تطلب قرضا لبناء السد ٠

شروط البنك الدولى :

درس البنك المشروع ، ولأن غالبية اعضاء مجلس ادارته من الدول الغربية ، فقد وضع شروطا لتمويله بعد أن تأكد من سلامته وحيويته وأهميته بالنسبة لقضية التنمية فى مصر ، وكانت شروط البنك الدولى الخمسة ، تمثل تدخلا مباشر فى استقلال مصر . ومساسا بسيادتها فهى :

١ ــ يطمئن البنك الى أن العملات الاجنبية المطلوبة التى سننالها من المنح الانجليزية والامريكية لا تنقطع « اى نلتزم بألا نغضب انجلترا ولا آمريكا حتى لا يقطعان المنح » ٠

٢ ــ يجب ان يتفاهم البنك مع الحكومة المصرية ويتفق معها من وقت لآخر حول برنامج الاستثمار « أى ان البنك يفرض وصايته على الحكومة المصرية » ٠

٣ ــ يطالب البنك بضبط المصروفات العامة للدولة « اى أن البنك يتدخل فى صميم شئون أعمال الحكومة المصرية . الداخلية» ٠

٤ ــ لا تتحمل الحكومة المصرية اى دين خارجى « أى تلتزم الحكومة امام البنك بعدم الاقتراض » ٠

٥ ــ لا توقع الحكومة أية اتفاقيات دفع « كاتفاق الاسلحة ، مع الاتحاد السوفيتى » وتتفاهم مع البنك أولا وقبل الاتفاق على أى مشروع ٠

وبعد ذلك كله ، واذا استجابت الحكومة المصرية لكل هذه المطالب فانها فى النهاية تلتزم بأن تخضع له ادارة المشروع بعد أن يتم الاتفاق بين الحكومة المصرية وادارة البنك .. أى ان يشارك البنك في ادارته ·

وارسلت الحكومة البريطانية ، والامريكية مذكرتين الى مصر تحملان نفس الشروط ··

لهذا رفض عبد الناصر ان يساهم الغرب فى تمويل المشروع، واصر على ان يقام بسواعد ابناء مصر الذين حفروا القناة بأظافرهم واستشهد منهم ١٢ الفا فى حفرها ، تحت السخرة وسياط الاجنبى ··

آخر خطاب لعبد الناصر :

بجهود ابناء مصر ، وبعرقهم بني السد العالى ، وارتفع صوت جمال عبد الناصر فى آخر خطاب له فى عيد ثورة يوليو ١٩٧٠ ، وكأنه وهو يودع الشعب العربى يذكره بهذا المشروع الحيوى ، الذى يرمز لنضال شعبنا ، وعظمته ، فيقرأ برقية تلقاها من وزير السد العالى يوم اجتماع المؤتمر الوطنى تقول : « باسم بناة السد العالى الذين تعهدوا بالانتهاء من محطة كهرباء السد العالى فى العيد الثامن عشر للثورة تقديرا منهم لفضلها فى انشاء هذا المشروع العظيم الذى لم يكن ليتم لولا التصميم على تنفيذه . بالرغم من المؤامرات الامبريالية التى حيكت لاحباطه ، يسرنى أن أبلغ سيادتكم ان العمل بالسد العالى على هذا النحو يكون قد انتهى على أكمل وجه ، مع أصدق تمنيات جميع العاملين فيه فى هذه المناسبة مجددين العهد ، داعين الله ان يسدد خطانا على طريق النصر » .

عبد الناصر ومعاناة الشعب :

ويلخص عبد الناصر بعد تلاوته للبرقية معاناة الشعب المصرى لاقامة السد العالى ويلقى ضوءا سريعا على ما يحققه السد فيقول :

« ان الشعب المصرى بهذا العمل العظيم الذى تم واكتمل اليوم . فى هذه الظروف يثبت مرة أخرى . ويؤكد انه اذا كانت شهادة التاريخ لصالحه ، فان اتجاه المستقبل بأذن الله لصالحه أيضا ، وما اتمام بناء السد العالى اليوم وبرغم ضخامته الهائلة كمشروع من أكبر مشاريع البناء والتعمير فى عصرنا . الا اشارة الى هذا المعنى ٠٠ شعب أعطى للدنيا ، وللحياة ، وشعب سوف يعطى الدنيا ، وللحياة ، شعب يبنى كل يوم . وشعب يقاتل فى أى يوم ، يعرف قيمة البناء . ولكنه يدرك بعمق وأصالة ، فى نفس الوقت أهمية حمل السلاح دفاعا عن أمله فى البناء ، ودفاعا عن تحقيق البناء » ٠

« ولقد تذكرون ان حرب السويس عام ١٩٥٦ ، قامت فى الأصل والاساس ، بسبب تصميم هذا الشعب على بناء السد العالى ، وتشاء الاقدار ، ان يتم بناء هذا السد العالى بعد ١٤ عاما من حرب السويس ، بينما هذا الشعب يخوض غمار حرب أخرى ؛ « ان التصميم على بناء السد العالى عام ١٩٥٦ اطلق شرارة حرب ، وها نحن اليوم ، وسط نيران حرب أخرى نشهد البناء ، وقد اكتمل بعد كفاح عنيف ضار ، حاولت فيه كل القوى ان تصد تقدمه فكانت النتيجة الوحيدة لذلك أن تفجرت طاقات أخرى كامنة فى أعماق هذا الشعب خرجت بالتصميم تبنى ، وخرجت بالتصميم تقاتل » ٠

« أننا لا نحتاج فى هذا اليوم الغالى من أيام نضالنا يوم ثورة ٢٣ يوليو ، يوم مرور ١٨ عاما على قيام هذه الثورة ، غير آن ننقل البصر ، بين خطين على أرض وطننا لكى نعرف جوهر نضال هذا الوطن ، وأهداف هذا النضال والقوى التى تحركه ٠٠ وتدفعه ٠٠ خط عند الجنوب بعرض النيل العظيم ، هو السد العالى ، الذى اكتمل بناؤه هذا اليوم ٠٠ وخط عند الشمال بمحاذاة قناة السويس ، هو خط القتال الذى يخوض عليه الشعب المصرى والجيش الوطنى للشعب المصرى ، أشرف معاركه ٠٠ أعظم معاركه ٠٠ أعنف معاركه ، عند هذا الخط على الجنوب بعرض نهر

النيل يقف السد العالى وتقف بجواره محطة الكهرباء العملاقة التى دارت الوحدة الثانية عشر فيها قبل ساعات ، وبذلك اكتمل بناء محطة من أكبر المحطات الكهربائية في العـالم » ٠

« بالسد العالى نفسه تم حتى الآن تحويل ٨٢١ ألف فـدان من أراضى الحياض الى الرى الدائم ، وتم استصلاح ٨٥٠ ألف فدان جديدة ، اضيفت الى الرقعه الزراعية انتصـــارا على الصـحراء ، ومازالت عمليات الاستصلاح على المياه الفائضة مستمرة كل يوم ، لا تتوقف لحظة مهما كانت الظروف ٠ وبكهرباء السد العالى فان طاقة قدرها ١٠ مليار كيلو وات ساعة قد أضيفت الى طاقاتنا ، وبذلك فان دخل الفرد المصرى من الطاقة الكهربائية المتاحة يرتفع الى ٥٠٠ كيلو وات ساعة في السنة في حين انه كان أقل من ٤٠ كيلو وات ساعة فى السنة قبل الثورة » ٠

الخبراء يتكلمون :

ما هى أهمية وجود السد العالى ٠٠ يجيب على هذا السؤال المهندس عبد الخالق الشـناوى وزير الرى ونقيب المهندسـين السابق بأن أهمية وجود السد العالى تأتى من ان ايراد النيل كان ٨٤ مليار متر مكعب من الماء سنويا ، كان نصيب مصر منها ٤٨ مليار والسودان ٤ مليار ، والبحر المتوسط ٣٢ مليار متر مكعب ٠

ووجود السد العالى وفر ٣٢ مليار متر مكعب من الماء ، كان نصيب مصر منها ٥ر٧ مليار والسودان ٥ر١٤ مليار ، وكان نصيب البخر فى بحيرة ناصر ١٠ مليارات متر مكعب من الماء ٠

« ومنذ أقيم السد العالى ليسع ١٥٧ مليـار متر مكعب من المياه يترسب فيها فى البحيرة ٣٠ مليارا ، ويبقى للتخزين الحى ٦٠ مليارا ومن المؤكد ان البحر بدأ يظهر كنتيجة للسد العالى ، فالطمى الذى كان يحمله الفيضان يترسب ثم تخرج المياه من السد بصفة دائمة مجردة من الطمى الذى كان يصل الى ٤ كيلو جرام فى المتر الواحد اثناء الفيضان ٠٠

اما مشكلة الصرف ، فنحن غارقون فيها منذ ١٥٠ سـنة (١) وهى معروفة لدى الجامعات والمراكز العلمية ، بل وبعضها معروف لدى الفلاح المصرى .

اما عن الطمى « فقد كانت جملة الطمى الذى يحمله النيل من هضبة الحبشة على مدار السنة ١١٠ مليون طن ، وكان المترسب منه على الاراضى الزراعية ١٣ مليون طن والباقى يذهب الى البحر المتوسـط .

وكان نصيب الفـدان الواحد فى السـنة فى وجه قبلى ٣٦ر٢ر٠ طن وفى الوجه البحرى ٠٤٦ر٠ طنا .

وهذا الطمى يتكون من مادة عضوية ، وأخرى معدنية هى من الرمل ، والسلك ، ومن هنا فالمادة العضوية والطين ، هما الماداتان الفعالتان من المكونات المعلقة فى مياه النيل قبل السد .

ولهذا يمكن الاستعاضة بمكونات أخرى سواء صناعية ، أو طبيعية (٢) .

« أما ارتفاع المياه الجوفية ، فلم يكن ذلك فى رأى وكيـل معهد بحوث الاراضى والمياه بسبب السد العـالى ، وانما نتيجة للمشروعات التى انشئت مثل الترع لرى المناطق الجديدة وكانت النتيجة نشع فى الأرض أدى الى ارتفاع مستوى المياه الجوفية ، والمفروض أن هناك تحكما فى مياه السد نتيجة مقننات لكن سـوء استخدام المياه يؤدى الى ذلك » .

الطمى لبلادنا وحدها :

السد العالى فى رأى الخبراء ، والمتخصصون برىء ، ولكنه فى رأى « البعض » ليس بريئـا ، وينبغى ان يدان ، لأنه منع الطمى ، وكأن دول العـالم كله التى تزرع لديها طمى .. وكأن السدود التى تقام فى العـالم لا تمنع الطمى اذا وجد ، ولا تسبب

---

(١) جريدة الجمهورية ١١ مارس ١٩٧٥ الدكتورة انجى زين العابدين المدرسة بقسم الاراضى بكلية الزراعة .

(٢) الدكتور حسن نجانى وكيل معهد بحوث الاراضى والمياه ـ المصدر السابق.

نفس المشكلة .. وكما يقول الدكتور عز أستاذ التنمية والخصوبة بزراعة القاهرة بأن كل بلاد العالم أقامت سدودا ومعروف ان لها فوائد ، وأيضـــا لها أثار جانبية ٠٠ وفى المحصلة النهائية فهى مفيدة لبلادها ، فى الهند ، فى أمريكا ، فى الاتحاد السوفيتى ٠٠ أقيمت سدود لها ايجابياتها وسلبياتها ٠٠ ولم يثبت حتى الآن عمليا الدعاوى القائلة بانخفاض معدل خصوبة التربة ، كما لم يثبت حتى الآن زيادة فى الملوحة . كما أن كثيرا من الدول تقوم زراعتها على مياه المطر ، وهى مياه مقطرة ، ومع ذلك تعطى محاصيل كثيرة ٠

أما مسألة الخصوبة فهى فى الأرض ، ولعشرات السنين ، ولا أعتقد انها ستقل خصوبتها بسبب السد ، بل سوف تزيد مادام النيــل موجودا ٠٠

أما الدكتور عبد الحميد فتحى رئيس قســـم الاراضى بكلية الزراعة فقد أجرى أبحاثا على التربة قبل السد ، وبعده وهو يرى ان صلاحية المياه كانت أثناء الفيضان عالية ، قليلة فى التحاريق، أما بعد الســـد فالمياه موجودة على مدار العام ، وتخزين المياه فى منطقة جافة يحدث التبخـــر ، والمهندسون يعرفون ذلك جيـدا ، فالتبخر وصل الى ١٠٪ ومع هذا التبخر هناك تركيز نسبى للاملاح، لكن بعضه مفيد للتربة الزراعية ، ومع هذه الزيادات الطفيفة فى الاملاح مطلوب ان نعدل فى طرق خدمة الأرض فى الرى ، والصرف لمواجهة الزيادة الطفيفة فى الاملاح » ٠

وثيقة تشـهد للســـد :

هذه هى آراء الخبراء ٠٠ فهل يمكن ان يقتنع بها دكتـــور التاريخ ٠٠ والكاتب الكبير ، وبعض أعضاء مجلس الشـــعب ٠٠ وغيرهم من الذين حملوا معاول فى محاولة يائسة لادانة السد العالى أو التقليل من أهمية هذا الانجاز الضخم الذى يرتبط باســـم أشجع وانبل معارك عبد النـاصر ٠٠

ان كل هذه الشهادات ، ستظل ناقصة بدون وثيقة تاريخية اودعها وزير الرى المهندس أحمـــد كمال مجلس الشعب فى ١٦

فبراير ١٩٧٥ حيث شرح قصة المشروع ، منذ البداية ، واهميته بالنسبة لمصر ، وكيف درسته الحكومة وفوائده ·· ومزاياه ·· وآثاره الجانبية ·· وقال ان وزارة الرى اعدت مجموعة من المجلدات عن المشروع « حتميته ، وطبيعته ، أهميته ، آثاره ، تصميم انشائه ، تشغيله » وان الوزارة ترحب بمن يريد ان يطمئن على أن العمل مجيد وان العمل سليم وان العمل عظيم ··

وبدأ يشرح قصة السد العالى منذ البداية

بداية المشروع :

ان بناء السد العالى بلا ريب هو الطريق الى التطور الاقتصادى الذى تقتضيه ظروف البلاد لمواجهة الزيادة المطردة فى عدد السكان ونقص الغذاء ، الكساء ، الى جانب الحاجة الدائمة الى مطالب الحياة المتجددة ·

وفى بلد ـ كمصر ـ حيث تكاد الامطار تكون معدومة فان نهر النيل يكون هو وحده الشريان الحيوى للرخاء والحياة ، وقد أصبح النيل بحالته الطبيعية قبل السد العالى عاجزا عن مواجهة الاحتياجات المتزايدة للمحاصيل فى الاوقات المناسبة ·

وأرجو أن تأذنوا لى بالرجوع الى الماضى قليلا ـ لنعلم معا ـ أنه فى نهاية القرن التاسع عشر أصبح مجموع مساحات الاراضى التى تروى ريا مستديما حوالى ٣ر٦ مليون فدان وكانت هذه المساحة كلها تحت رحمة الايراد الطبيعى للنهر ، وخاصة فى موسم التحاريق ·

وقد حدث فعلا فى بعض السنوات أن قل ايراد النهر فى هذا الفصل عن احتياجات رى المساحات المنزرعة مما تسبب عنه حدوث خسائر فادحة فى المحصولات ·

لذلك ·· ومن أجل تلافى بعض هذه الاضرار ، ولامكان التوسع فى مساحات الرى المستديم نشأت فكرة التخزين السنوى للمياه على النيل بما يمكن فى كل عام من تخزين جزء من مياه

النهر في نهاية موسم الفيضان عندما تكون المياه خالية نسبيا من الطمي للاستفادة منها في الرى عند هبوط الايراد • وأمكن بواسطة خزان أسوان الذى تم انشاؤه في عام ١٩٠٢ ، وتعليته مرتين في عامي ١٩١٢ ، ١٩٢٣ ، ثم انشاء مجموعة من القناطر على النيـــل وانشاء خزان جبل الاولياء بالســـودان ان وصلت المساحة التى تروى ريا مستديما ٥ر٤ مليون فدان عام ١٩٣٧ •

غير ان المشكلة بعد ذلك الوقت في مصر لم تكن مشكلة تدبير المياه اللازمة للتوسع الزراعى فحسب بل أصبحت مشكلة متشعبة الاطراف • فالايراد الطبيعي لنهر النيل يتفاوت تفاوتا كبيرا ـ من عام لآخر •

لهذا .. ومن هذه الظواهر الطبيعية ـ كانت الحاجة ملحة الى ايجاد وســـيلة للتحكم في الايراد ـ المتذبذب ـ لضـــمان الاحتياجات المائية على مر الســـنين وكذلك لتدبير ميـــاه اضافية للتوسع الزراعى في كل من مصر والسودان •

وبالدراسات الواسعة لمشروعات عدة على النيل وروافده وجد ان المشروع الذى يعمل على التحكم في مياه لفيضان لصالح كل من مصر والسودان هو مشروع السد العالى فهو يخلق بحيرة صناعية كبيرة تمســتوعب كل ما يزيد على الحاجة في الســنوات العالية يحتجزها للصرف منها لسد العجز في السنوات العجاف مع سعات اضافية لاستيعاب رواسب الطمى واستقبال مياه الفيضانات الشاذة في الارتفاع •

ويقول المهندس احمد كمال وزير الرى « أن الحــكومة أقرت المشروع بعد ان قامت هيئة من كبار خبراء العالم ذوى الشـــهرة الواسعة في انشاء مثل هذه السدود بدراسته واثبات صـــلاحيته على انه حجر الاساس في سلسلة مشروعات ضبط النيل تليها باقى الحلقات حسب أهميتها تبعا لاحتياجات مصر والسودان الى المزيد من المياه للاستمرار في التوسع الزراعى •

ويخاطب اعضاء مجلس الشعب قائلا :

لقد اطلت في هذه المقـــدمة التاريخية ، الا انى رجوت ان أوضح ان مشروع السد العالى كان مشروعا ـ حتميا ـ بالنسبة لمصر من حيث قرار تنفيذه وتوقيت البدء فى اقامته **وبعد ذلك يتعرض الوزير لأهداف السد فيقول :**

ان مشروع السد العالى من أكبر المشروعات المتعددة الاغراض فهو لا يوفر الماء للتنمية الزراعية والطاقة الكهربائية فحسـب ، ولكنه فوق هذه المزايا يعتبر حاليا بنك النيـل الرئيسى فيضمن خرجا ثابتا من المياه لمصر والســـودان ويحصن البلاد ضد نكبات الغرق لو دهمها فيضان عال ، وذلك ما حدث فعلا فى عام ١٩٦٤ بعد تحويل مجرى النهر ، كما يحميها من كوارث قلة ايراد النهر لو شح تصرف النيل كما حدث فى ١٩٧٢ ، وفيما بين تلك الذروة الشاذة فى ارتفاعها وهذا الشح ، تأتى فيضانات وأصياف ما كان للبلاد أن تقوى على مجابهتها لولا وجود السد العالى •

الآثار الجانبية :

ويتحدث الوزير السابق باستفاضة عن المزايا والآثار الجانبية فيقول :

لكل مشروع هندسى كبير ـ كالسد العالى ـ مزاياه الكبيرة كما أن له بعض الآثار الجانبية ، والمشروع الهندسى الناجح هـــو ما تفوق مزاياه هذه الاثار الجانبية •

ففى عالم يعج بالأصدقاء والأعداء ، لم يكن مستغربا أن تعمد بعض الصحف والدوائر الى اثارة الشكوك حول هذا المشروع الضخم مستهدفة ما تعرض له الباحثون عند بدء دراسة المشروع من وصف للآثار الجانبية المترتبة على تنفيذه ، وما سبق ان انتهى اليه الرأى بامكان التغلب عليها بالأساليب الهندسية العلمية فى ضوء ما تسفر عنه الدراسات والنتائج الفعلية •

وكان أكثر الموضوعات تعرضا للهجوم رســـوب الطمى فى

حوض الخزان الأمر الذى يصفه مدبرو هذه الهجمات بأنه سيحرم الأرض الزراعية فى مصر من عنصر هام من عناصر تغذية النبات ، وموضوعات أخرى كثيرة تناولتها هذه اتجهات منها احتمال حدوث نحر شديد فى مجرى النيل خلف السد العالى ممـــا يهدد سلامة القناطر الحالية المقامة على النهر . من أســوان الى القاهرة ، وزيادة الملوحة فى الاراضى الزراعية وسوء حالة الصرف الى غير ذلك من آثـــار .

رسـوب الطمى :

منذ أن بدأ التفكير فى انشاء السد العالى عام ١٩٥٢ أجريت دراسات علمية متعددة لمعرفة مدى الاستفادة التى يحققها رســوب طبقة الطمى على الأراضى الزراعية فى مصر ، وقد أسفرت هــذه الدراسات عن أن معظم كميات الطمى كانت تذهب الى البحـر ولا يصل منها الى الاراضى الزراعية سوى ١٣ مليون طن موزعة كالآتى:

٢ر٨٢ مليون طن على أراضى الرى المستديم بالوجه القبلى و ٨ر٧٧ مليون طن على اراضى الحياض بالوجه القبلى و ١ر٤٩ مليون طن على اراضى الوجه البحرى .

ويتضح من ذلك أن معظم كمية الطمى كنت تترسب على أراضى الحياض التى كانت تغمرها مياه الفيضان وكان من المحتم تحويلها الى نظام الرى المستديم لاستحالة غمرها بعد انشـــاء السد العالى ولزراعتا مرتين أو ثلاث مرات بعد أن كانت تزرع مرة واحدة فى السنة .

فاذا كان السد العالى سيحرم الاراضى الزراعية من قدر من طمى النيل سنويا فقط وجـد اخصـــائيو وزارة الزراعة أن ما ستخسره الأراضى الزراعية فى مصر من أزوت يمكن تعويضـه بقدر لا يتجاوز ١٣٠٠٠ طن من سماد نترات الجير سنويا ، وهذه خسارة لا تقاس بما يحققه المشروع من مزايا اقتصادية هامة .

يضاف الى ما تقدم الغالبية العظمى من الأراضى الزراعيــة بأنحاء العالم تروى بمياه الأمطار والأنهار ــ وهى تخلو من الطمى ــ ومع ذلك فهذه الارضى تعطى انتاجا كبيرا ومع ذلك فان من بـين الاثار التى ترتبت على السد العـــالى بحث تأثير نقص الطمى على خصوبة التربة وعلى ما تغله الارض من محاصيل .

النحر .. فى مجرى النهـــر :

قدر الباحثون القائمون بدراسة مشروع السد العالى قبـــل تقرير انشائه حدوث نحر فى مجرى النهر على امتداد المسافة بين اسوان والقاهرة بسبب انطلاق المياه من انفاق السد العالى رائقة خالية من كميات الطمى التى ترسب فى حوض الخزان .

واليوم بعد انقضاء عشرة أعوام على تشغيل السد العـــالى فقد لوحظ أن النحر يسير بمعدل قليل على الرغم من أنه فى مرحلة ما بعد اقفال مجرى النهر كانت تمر خلف السد العالى تصرفات عالية اما لعلو تصرفات الفيضان او لصرف مياه زائدة لملء الحياض الباقية التى لم يتيسر تحويلها فى ذلك الوقت الى الرى المستديم .

ولو أن بوادر النحر قد ظهرت فعلا بقدر ضئيل فى الوقت الحالى الا أنه من المعروف أن ذلـــك يرجع الى أن التصرفات من الخزان لا تتجاوز التصرفات المطلوبة لسد الاحتياجات الزراعيـــة الفعليـــة .

مزايـــا .. تحققت :

واذا كنا نرى اليوم مشروع الســـد العالى رابضـــا فى أسوان كالصرح الشامخ يؤتى ثماره المباركة ويعطى عوائده الضخمة فان التاريخ سوف يسجل له انه كان مضمارا لأعمق الدراسات ومسرحا لأعنف المعارك . فقـــد اشترك فى بحثـــه فحول الخبراء وصـــفوة المهندسين من أنحاء العالم شرقه وغربه على حد سواء .

وما أن بدأ تنفيـــذ المشروع واقفـــال مجرى النيـــل وتحولت تصرفات المياه الى القناة الصناعية فى عام ١٩٦٤ حتى أتى المشروع بفائدة كبيرة فقد جاء فيضان عام ١٩٦٤ خارقا فى الارتفاع وساعدت امكانيات الحجز فى السد على احتجاز التصرفات الزائدة عن اقصى حد تستطيع الجسور مقاومته وكان للسد العالى فضل وقاية البلاد وقاية تامة من اخطار ذلك الفيضان التى لا يمكن ان تقدر بثمن .

ثم جاء ايراد عام ۱۹۷۲ شحيحا ينذر بالخطر فأمكن للسد العالى توفير مياه الرى لجميع المساحات المنزرعة ولولاه لزادت الخسارة من جراء عدم رى الأراضى على ما يعادل تكاليف انشاء السد العالى .

وبالاضافة الى هذه الفوائد وما حققه السد العالى من زيادة الرقعة المنزرعة فى مصر بحوالى مليونى فدان وتوليد طاقة هائلة من الكهرباء تصل الى ۱۰ مليارات كيلوات ساعة سنويا عند اتمام ملئه فانه يعمل على ضمان توفير الاحتياجات المائية للمحاصيل فى الأوقات المناسبة على مر السنين مهما اختلف ايراد النهر وتيسير الملاحة وتوفير المياه لزراعة الأرز الذى يعتبر المحصول الثانى للبلاد .

ولئن كانت مصر قد بنت السد العالى رمزا للكفاح والصمود لتحقق به أهدافها فى الحرية والكرامة فان خير السد العالى لن يقف عند حدود تلك الفوائد الاقتصادية التى ذكرت بايجاز الا أن الأمر يستوجب بالضرورة دراسة آثاره الجانبية دراسة تستهدف ازالة اى اثر لها فى المستقبل .

فيضـــان ١٩٧٥ :

هذه الوقائع العملية لا تكفى لتبرئة السد العالى عند البعض لأن مهندسا مصريا كان له رأى مختلف منع من ابدائه كما يقول المفكر الكبير توفيق الحكيم .. ولأن « البعض » لابد ان يكون أكثر خبرة .

وفى نفس الوقت الذى اشتدت فيه الحملة الضارية على السد العالى ، جاء فيضـان عام ١٩٧٥ ، واغرق قـرى عديدة فى السودان .. وتنجو قرى مصر من الغرق بسبب السد العالى .. ويدلى وزير الرى ــ المهندس عبد العظيم أبو العطا ــ بتصريح يقول

فيه (١) : ان السد العالى يحمى مصر من كل الفيضانات ولذلك فانها لن تتأثر بالفيضان الزائد الذى تصل مياهه الينا طوال هذا الشهر والذى تسبب فى اغراق ٣٠ قرية فى السودان ، وتشريد ١٠٠ الف مواطن ، وقد بلغت مياه الفيضان عند اسوان اكثر من الف مليون متر مكعب يوميا » .

هل تكفى هذه الحقائق ، لتخرج السد العالى من قفص الاتهام وتبرئه .. لا أعتقد .. فالقضية لم تكن أبدا قضية السد العالى ، ولكنها ستظل قضية النضال ضد قوى الاستعمار ، متجسدة فى هذا الصرح .. المطلوب هدمه ..

الكونجرس : اين الشرخ :

الذين أثاروا قضية السد العالى بعد وفاة عبد الناصر مباشرة ، وفى بداية الحملة عليه ، هم خصوم عبد الناصر الالداء ، الأمريكان ، ويقول المهندس (٢) محمد أسعد فهمى رئيس مجلس ادارة هيئة السد العالى « انه منذ أسابيع جاء الى هنا وفد من الكونجرس الأمريكى ، وقد بدأت الحملة على السد من الولايات المتحدة الأمريكية ، ولا تزال ، ولذا أرحب دائما بالوفود القادمة من أمريكا ، وافيض فى الشرح ولكن قبل ان ابدأ .. وقف احدهم ، وقال ان كل ما نبحث عنه هو اجابة عن سؤالين محددين :

أولا : اين الشرخ المشهور الذى حدث فى السد .

ثانيا : اين التسرب الذى حدث فى مياه السد .

وقلت : ما دمتم جئتم مزودين بأسئلة محددة ، فلابد انكم

---

(١) الاهرام ٢٢ سبتمبر ١٩٧٥ .

(٢) روز اليوسف ١٦ مارس ١٩٧٥ .

تعرفون أين تبحثون عنها ولذا اتركم لتروا السد من بدايته حتى نهايته ، واذا وجدتم الشرخ ، والتسرب دلوني عليهما .. وبعد انتهاء الزيارة والمناقشة التى دامت طويلا قرروا بان ما سمعوه ، وقراوه لم يكن له أى أساس من الصحة وانهم مقتنعون الآن » .

اقتنع وفد اعضاء الكونجرس الامريكى بالسد العالى ، ولم يقتنع بعض اعضاء مجلس الشعب عندنا ..

الا يثبت هذا صحة المثل الذى يقول ان هناك ملكيين اكثر من الملك .

مشروع مفيد :

ويواصل رئيس مجلس ادارة هيئة السد العالى الحديث عن لقائه مع اثنين من المهندسين ..

* شيخ المهندسين على فتحى الذى قيل انه يهاجم السد العالى .
* والمهندس عبد العزيز أحمد الذى تحدث عنه توفيق الحكيم ، وقال انه منع من ابداء رأيه فاضطر للسفر الى الخارج .

وذهب رئيس مجلس ادارة السد المهندس محمد أسعد فهمي الى المهندس على فتحى ليناقشه ، وسأله سؤالا صريحا مباشرا : هذا صحيح انك تهاجم السد العالى ؟ . ورد المهندس على فتحى قائلا :

ـ انا لا أهاجم السد العالى وهو بلا شك مشروع مفيد ..

ولكننى رجل علم وتحدثت عن السد من الناحية العلمية ، وكل ما قلته هو انه اذا كان هناك احتمال حدوث نحر فى مجرى النيل بسبب السد فيجب أن نبحث الأمر ونتلاشى ذلك » .

ويقول المهندس محمد أسعد فهمى انه عاد لسؤاله :

« وهل صحيح انك تعتقد أن النحر سيصل الى ١٦ مترا فى قاع النهر ؟ » .

وقال : « نعم »

ورد رئيس مجلس ادارة السد : « ولكن هذا النحر لم يحدث حتى الآن وكل ما حدث فى العام الأول هو نحر بمقدار ٦٠ سم وبعد ذلك حدث بواقع سنتيمتر واحد فى العام .. وليس فى كل عام ، ثم اثبتت الدراسات التى اجريت أن النحر لن يزيد عن هذا السنتيمتر الواحد فى العام اذا حدث وكل ما نصرفه من مياه السد حتى الآن لا يزيد عن ٢٣٠ مليون متر مكعب فى اليوم وهى احتياجات الرى القصوى وهذا القدر لا يمكن بأى حال أن يحدث عنه نحر .

وقال المهندس على فتحى :

ولكن قد يحدث ان تمتلىء البحيرة وتضطر لصرف كميات اضافية من المياه وحينئذ تسبب النحر وقد يزيد هذا النحر بحيث يصبح هناك احتمال لحدوث نحر بالقدر الذى ذكرته وهو ستة عشر مترا بعد مائة أو مائتى عام وانا كمهندس أرى انه فى التصميمات الهندسية لابد أن يأخذ المهندس بالأحوط ويقرأ أسوأ الاحتمالات ويجب الا يأخذ جيل مزايا المشروع ويترك مساوئه للاجيال القادمة .

وكان راى رئيس مجلس ادارة هيئة السد العالى : ان مائة أو مائتى عام هذا تقدير بعيد والعالم والعلم لا يتوقف والتقدير على أى حال يعد تشاؤما مفرطا أولا لأن حدوث النحر هو مجرد احتمال أى قد يحدث وقد لا يحدث . ولأن خطر النحر يصبح حقيقة اذا لم يكن هناك مواجهة دائمة وانت تعرف أن هناك لجنة خاصة للنحر على أعلى مستوى وقد كنت ولا زلت عضوا فيها ، وهى قد درست مسألة النحر قبل البدء فى المشروع وتدرسه كل يوم وتضع كل

الحلول وتفترض كل الاحتمالات .. وبهذا لم يكن هناك مبرر قط لاشاعة القلق والبلبلة ..

ورد المهندس علي فتحي : « أنا لا دخل لي بما ذكرته الصحف . وقد جاءني احد الصحفيين وطلب أن نشترك معا في كتاب ضد السد فاعتذرت ولكنني القيت محاضرة علمية وأخذتها الصحف وكتبت ما شاءت » .

ويقول رئيس مجلس ادارة السد انه في نهاية المناقشة قلت له : « هل تقبل أن نقيم ندوة علنا في التليفزيون تشرح فيها كل تساؤلاتك وتشاؤمك .. وأقوم بوصفي مسئولا عن السد بالرد حتى يطمئن الراى العام » وطلب الى ان انتظر حتى يفكر .

المهندس الذى منع :

والحديث عن شيوخ المهندسين لابد ان يصل الى المهندس عبد العزيز أحمد الذى قيل انه منع من ابداء آرائه .. واضطهد بسببها حتى غادر البلاد وهذا هو محضر طويل لجلسة مناقشة عقدت في ١٩ ابريل سنة ١٩٦١ اى في بداية البداية وحضرها نيبا روجيني وزير الكهرباء في روسيا وعدد من خبراء السدود السوفييت وحضرها الدكتور هيرست الخبير العالمي البريطاني الذى اقام وعمل طويلا في مصر والمستر بلاك وهو خبير بريطاني عالمي آخر وخبراء آخرون من السويد ثم الخبراء المصريون . ونوقش الدكتور عبد العزيز أحمد مناقشة مستفيضة في التقرير الذى قدمه .

وفي النهاية اجمع الخبراء الروس والبريطانيون والسويديون والمصريون معا على أن ما جاء في تقرير الدكتور عبد العزيز أحمد غير صحيح .. وانه على أحسن الأحوال مبالغ فيه أشد المبالغة ورفضوا الأخذ باعتراضاته .

ولم يمنع الدكتور ... ولم يضطهد ولم ترفض آراؤه عسفا .

كشف حساب السد :

ورئيس مجلس ادارة السد العالى يقدم كشف الحساب الختامى لما قدمه السد العالى فيقول :

لنبدأ بحساب الزراعة .. تمكننا مياه السد من استصلاح مليون وثلاثمائة ألف فدان ، واستصلاح الأراضى هو حجر الأساس فى التنمية وبناء ريف جديد عصري .

وبالفعل أمكن استصلاح تسعمائة الف فدان ، يزرع منها سبعمائة الف ولم يتحقق برنامج الاستصلاح وفق الخطة نظرا لعوامل وظروف لا علاقة للاستصلاح بها وحتى يتم برنامج الاستصلاح ، حولت المياه لزيادة مساحة المنزرع من الارز وهى الآن سبعمائة الف فدان بدلا من ثلاثمائة الف ، وينتج لمصر مليون وربع مليون ضريبة تغل للبلاد ٥٢ مليون جنيه استرلينى سنويا .

وكان الالتزام « الزراعى » الثانى على السد ، تحويل مليون فدان من رى الحياض الى الرى المستديم وقد تحقق هذا .

وقد أثار كثيرون مشكلة الأراضى التى تضررت من التحول وهناك بعض الحقيقة فى هذا الموضوع ولكن المشكلة تعود للتراخى فى انشاء مشروعات الصرف .

والقاعدة الأساسية هى تأمين الصرف قبل الرى .. وانشاء المصرف قبل الترعة كما كان يقال .

الصناعة .. والسد :

وننتقل الى الحساب الآخر وهو حساب الصناعة .. ولم يكن ممكنا تصنيع مصر بدون السد وبغير توفير الكهرباء وهى الطاقة التى يمكن أن تعتمد عليها وتعتمد عليها ثورة أخرى وهى كهربة الريف وتقاس حضارة أى بلد فى هذا العصر بنسبة استخدامه واستهلاكه للكهرباء .

وفى محطة السد العالى ١٢ « توربين » تستطيع أن تنتج ١٠ مليار كيلووات ساعة فى السنة .

ومنذ البداية أيضا قدمت محطة السد العالى مساهمتها الحاسمة وبعد ضرب المدمرة ايلات رد الاسرائيليون بضرب الزيتية فى السويس وكادت تتعطل الوحدات الحرارية المولدة الكهرباء فى ارجاء كثيرة من الجمهورية بانقطاع البترول وعلى الفور قامت محطة كهرباء السد العالى وبجهد خارق وعوضت الطاقة ووفرت يومئذ ١٩ مليون جنيه استرلينى على الأقل .

سعر الكهرباء :

ويلقى الكثيرون على السد العالى تبعة غلاء الكهرباء .. ومن الطبيعى ان ينخفض سعر الكهرباء بعد بناء السد وهو ما حدث اذ يتكلف الكيلووات من الكهرباء أقل من ٢ مليم وبالتحديد ٩٠ر١ مليم ولكن الدولة لظروف اقتصادية وقومية تضيف على ثمن الكهرباء اعباء أخرى مثل ضريبة الاذاعة والتليفزيون وغيرها وبذلك يضحى الأفراد فى سبيل المصلحة القومية .. والسد لا يقرر السياسات العليا .

وهناك عدد من التوربينات لا يعمل ، وهى محجوزة لمصنع الألمنيوم الذى يعتبر أحد الصروح الكبرى للصناعة الثقيلة .

ولكن هذا لم يمنع مهاجمى السد من أن يعلنوا بلا تورع أن التوربينات فاسدة .

السردين يعود :

ويبقى المأخذ الأخير على السد وهو « السردينة » .

كانت أسراب السردينة تظهر بمجرد انسياب المياه المحملة بالطمى الى فرعى دمياط ورشيد ثم هجرنا ورحل ... وحياتنا لا تتوقف على السردين .

ومع هذا فان وسائل الصيد الحديثة قد تطورت بحيث يمكن اصطياد السردين حيثما كان قريبا أو بعيدا عن الشواطىء على أن السردين بدأ يعود للشواطىء .

وقد اقام السد بحيرة ناصر .. وهى تعوض مصر أضعاف اضعاف ما كنا نحصل عليه من السردين خلال الفيضان .

وبحيرة ناصر هى الكنز الجديد الذى وجدناه وهى تستطيع أن تمدنا سنويا باكثر من ثلاثين الف طن من السمك .. ويمكن استصلاح نصف مليون فدان على الأقل على ضفافها وفى أخوارها ، ويمكن سد حاجة مصر من الثروة الحيوانية ، باقامة محطات واسعة فى الأراضى التى يمكن استزراعها وتربى فيها العجول والأبقار والاغنام والجمال التى تستورد من السودان .. ويمكن تسمين ٤٠٠,٠٠٠ رأس من الأبقار كل ستة أشهر .

وعلى الضفة الغربية من البحيرة تتوفر كمية هائلة من الطفلة ، يمكن استغلالها فى تصنيع الكثير من الحراريات وفى مقدمتها الطوب الأحمر .. وهو اهم ما نحتاجه فى حركة التعمير والبناء الآن . والضفة الشرقية لبحيرة ناصر هى سلسلة جبال تتميز بوجود كميات وفيرة ، واقتصادية لكل من الجرانيت ، والرخام يمكن أن تقام عليها صناعة كبرى لهذين الموردين .. وتوجد محاجر الكاولين بكميات هائلة أيضا على الضفة الشرقية والكاولين مادة تدخل فى عديد من الصناعات الرئيسية مثل الورق والحراريات .

واخيرا يمكن انشاء سلسلة فنادق عائمة ، ومحطات سياحية حول البحيرة . قرب الآثار العالمية المنتشرة على ضفافها وبالطبع يمكن بالبحيرة تدعيم المواصلات بيننا وبين السودان وسد الثغرة الباقية منذ عهد الاستعمار بجعل حلفا منطقة وصل بين البلدين .

الخبراء الأمريكيون .

ولعل المناسب أيضا أن يتأكد الذين ينهشون السد العالى بأن راى الخبراء الأمريكيين فى السد لا يختلف عن آراء بقية العلماء بل ان وفدا منهم جاء لزيارة السد ، وكتب تقريرا فند فيه كل الاتهامات الموجهة الى السد واعلن براءته .. وربما كانت هذه الشهادة خير ما يقنع الذين ما زالوا حتى الآن يشككون ..

الخبراء الأمريكيون الثلاثة زاروا السد العالى فى نوفمبر ١٩٧١، وهم : مستر وليم هـ. وايزلى مدير جمعية المهندسين المدنيين بالولايات المتحدة والدكتور وليم ل. هيوز رئيس قسم الهندسة

الكهربائية بجامعة اكلاهوما والسناتور هنرى ل. بلمون عضو مجلس الشيوخ الأمريكى .

والثلاثة من كبار المهندسين الأمريكيين .

وبعد انتهاء الزيارة والمامهم بالابعاد الكاملة للمشروع دون اثنان منهم انطباعاتهما العامة وتعليقاتهما على ما أثاره البعض من شكوك حول الآثار الجانبية المترتبة على تنفيذه .

قال وليم وايزلى مدير جمعية المهندسين الأمريكية فى بيان تحت عنوان : « الناس وتأثير البيئة والسد العالى » (١) .

« ان هناك اليوم اهتماما كبيرا فى الولايات المتحدة لتقييم الآثار البيئية والاجتماعية والاقتصادية فى التخطيط الهندسى للمشروعات الكبرى بصفة عامة .

ولذلك فان هذه الفرصة بزيارة السد العالى تهيىء المشاركة فى استعراض هذا المشروع الضخم من ناحية تأثيره على الناس والبيئة . ان العديد من المتحفظين والصحفيين أثاروا اعتراضا على بعض الآثار الجانبية للسد العالى من بينها ما يلى :

الشك فى ان بحيرة السد العالى ستمتلىء ، بسبب ارتفاع نسبة الفاقد بالتبخر والتسرب .

ترسيب الطمى بكميات كبيرة فى البحيرة مع فقدان الخصوبة التى كانت تتمثل فى رسوب الطمى على الاراضى التى كانت تغمرها مياه الفيضانات السابقة .

---

(١) هل نهدم السد العالى لفيليب جلاب .

النحر الزائد عن الحد فى مجرى النهر ومنطقة الدلتا .

خلق ظروف مواتية لانتشار البلهارسيا والملاريا .

زيادة الملوحة فى التربة .

انتقال مواقع صيد السردين وابتعادها عن مناطق مطبـــات النيل فى البحر الأبيض المتوســط .

وقد اوجز المهندس وايزلى رده على هذه النقاط فيما يلى :

معدل ملء بحيرة السد العالى : يجب ملاحظة أن الغرض من بحيرة ناصر انما هو تخزين ميـــاه فيضانات النيل لتكون مصدرا مستمرا وثابتا لرى الأراضى الزراعية وتوليد الكهرباء ـ وان ملء البحيرة حتى الآن يتم كما كان متوقعا ـ كما انه اتضح من الرقابة على ملء البحيرة خلال السنوات الستة الماضية أن معدلات الفاقد بالتبخر والتسرب لا يتجاوز الحدود المقدرة لهـا فى التصميم وانه حتى الآن لم تظهر اى مناطق ضعيفة تتسرب منهـا المياه بقـاع البحـــيرة .

الأطمـاء : من بين مجموع الستين مليون طن من الطمى التى كانت تحملها مياه النيل كل عام كان نســبة ما يذهب منهـــا الى البحر مع مياه الفيضـــان ٨٨٪ ـ ونســـبة ما يرسب منها على الاراضى ليكســـبها خصوبة ٩٪ فقط أى حـــوالى ٤ر٥ مليون متر مكعب ـ وتقدر الخسارة من عدم ترسيب الطمى على الاراضى بعد السد العالى بما يعادل ١٣٠٠٠ طن من سماد نترات الكالسيوم فى السنة ــ وقد اتضح أن تكاليف تسميد الاراضى بهـــذه الكمية

الاضافية من السماد يقل عما كانت تتكلفه عمليات تطهير ترع الرى من الطمى الذى كان يرسب بها اثناء الفيضانات .

ومع تخزين المياه سيرسب الطمى فى الأحباس العليا من بحيرة السد العالى وسيسمح تصميم سعة البحيرة بتخزين ٣٠ مليار متر مكعب من الطمى وتكفى هذه السعة لرسوب الطمى لمدة خمسمائة عـــام .

النحر خلف السد : احدثت فيضانات النيل كل عام حالة عدم استقرار فى شواطىء النهر بسبب النحر - وفى الوقت الحاضر تمر المياه خلف السد العالى خالية من الطمى بسرعة كبيرة ولكن مدى التغيير فى التصرفات كل عام قد انعدم - وفى مثل هـذه الظروف المستقرة سيتلاشى النحر تبعا لذلك وتصبح شواطىء النهـر أكثر استقرارا - وسوف يمكن الوصول الى مزيد من التحـكم فى حالة النحر بواسطة انشـــاء قنـــاطر اضافيـة على النيل فيما بين القـاهرة واسـوان .

الأمراض المتوطنة : تعد البلهارسـيا والملاريا من الأمراض المتوطنة فى جميع البلاد الحارة التى ينخفض فيها مستوى المعيشة والتى تعتمد فى زراعة اراضيها على ماء الرى - وتجرى باستمرار دراسة مناطق تواجد الحشرات الناقلة لهذين المرضين - ولم تظهر حتى الآن آثار لوجود بعوضة « الانوفليس » ببحيرة ناصر وبالنسبة للبلهارسيا فقد وجد ان نسبة الاصـابة بها ١٨ ٪ من بين ٤٠٠٠ صياد يعملون بالبحيرة .

وسوف يصحب التقدم فى الاقتصـــاد القومى والعمل على الارتفاع بمستوى المعيشة تحسن فى مستوى الصحة العامة وسبل الوقاية من الأمراض وهذا امر له اسبقية أولى فى مصر وفى الوقت الحـــاضر .

ملوحة التربة : ان تراكم الأملاح فى التربة ناتج عن تبخر المياه السطحية بمعدلات عالية ـ وهذا يمكن تلافيه بتهيئة الوســـائل اللازمة لصرف المياه من التربة وفى ذلك فائدة اخرى هى التعجيل باعادة المياه الجوفية الى النهر ـ ولدى وزارة الرى فى مصر برنامج مستمر لعمل شبكات لصرف المياه من الاراضى يســاعد فى تمويله صندوق النقـــد الدولى .

الثروة السمكية : تسبب على ما يبدو ـ فقدان المواد الغذائية التى كانت تحملها مياه الفيضان فى هجرة السردين من المواقع التى يتواجد فيها عند مصبات النيل فى البحر الأبيض وقدرت فى الماضى قيمة صيد الأســـماك من البحر فى هذه المواقع بسبعة ملايين من الدولارات فى السنة .

ونتيجة لهجرة السردين اعيد انشاء وسائل ومعدات الصناعة القومية لصيد الأسماك وادخلت عليها احدث نظم الصيد فى المياه العميقة مما ساعد على صيد انواع أخرى من الأسماك بالاضـــافة الى السردين .

وتنتج بحيرة ناصر الآن نحو ٢٠٠٠ طن من الأســـماك سنويا وينتظر ان يصل انتاجها الكلى الى ١٦٠٠٠ طن او اكثر سنويا » .

واختتم الخبير الامريكى وايزلى بيانه قائلا :

« اذا نظرنا الى السد العالى على ضوء مزاياه الحيوية الكثيرة لشعب يحتاجها نجد أن ما يطلق عليه آثار بيئية هى بكل وضـوح آثار غير موضوعية ـ ومع ذلك فان مركز تنمية بحيرة ناصر بمدينة اسوان قد توافرت لديه جميع التسهيلات للقيام بالأبحاث الخاصة بتغيير البيئة فى المنطقة ، وتجرى فى الوقت الحاضر دراسات خاصة بالانتفاع بشواطىء البحيرة ومصايد الأسـماك ، وبحث موضوعات الحشرات الناقلة للأمراض والنحر ، وكذلك دراســـات مستقلة خاصة بموضوع استقرار شواطىء البحر على الدلتـــا الذى ظلت مشكلته قائمة منذ أمد بعيد .

« ويعتبر السد العالى ولا شك من عجائب الهندسة الحديثة والأهم من ذلك انه يلبى احتياجات الشعب ، كما انه يعد مشاركة رائعة بين المهن الهندسية فى كل من مصر والاتحــاد السوفييتى ، وكذا المهندسين من بلاد أخرى شاركت فى وضع تصميمات المشروع فى مراحله الأولى ، وهو بذلك يضمن احسن ما فى الفن الهنــدسى من ابداع وسلامة فى التنفيذ .

« ولا شك انه لا يوجد مشروع هندسى آخر غير السد العالى أعطى كثيرا لعدد وفير من الناس كانوا فى أشـــد الحاجـــة الى التشجيع والمعاونة من الشعوب المتطورة فى العـــالم ـ وانه من الأفضل للذين يقللون من شأن هذا المشروع الكبير أن ينظروا اليه من الناحية الصحيحة وبالتركيز الصحيح .

تأملات خبير أمريكى :

أما الدكتور وليم هيوز ـ أستاذ الهندسة الكهربائية بجامعـة أوكلاهوما فقد قدم بيانا بعنوان « تأملات عند أسوان » وفيما يلى بعض فقرات من البيان تناولت الآثار الجانبية للمشروع ومزاياه :

« ان صحافتنا الأمريكية كانت تجنح بصفة عامــة الى وصف

مشروع السد العالى بأسوان بعبارات بها روح التعالى أو عبارات تقلل من شأنه ـ فقد سمعنا مثلا ان السد يتحرك ـ حقيقى انه يتحرك كما يفعل اى سد كبير آخر ، وهذه الظاهرة مأخوذة فى الحساب عند تصميم المشروع ، وسمعنا ايضا ان عدم حدوث الفيضان كل عام سيغير أحوال البيئة بالنهر ، وطبيعى أيضا أن هذا سيحدث ـ ولكننا نضيف الى ذلك أن المشروع قد جعل فى الامكان الحصول على محصولين فى السنة بدلا من محصول واحد ، وانه اضاف مليون فدان من الأراضى القابلة للزراعة لمساحات الاراضى المنزرعة ، وانه يولد قوة كهربائية مقدارها ٢ر١ مليون كيلووات للتعمير وكهربة الريف .. وكل هذا ايضا من شأنه ان يغير حالة البيئة . وعلى الجانب الآخر وهو الجانب السلبى بدأ ظهور بعض الأمراض كنوع من المشاكل يلزم لحلها اتخاذ اجراءات خاصة وهذا ما يجرى فعلا الآن ـ وان يتوقف عملية غمر اراضى الدلتا بمياه الفيضان معناه وجوب اضافة كمية من الأسمدة الكيماوية وأهمها سماد النترات كما انه نظرا لعدم غرق الاهالى بعد أن كفل لهم السد العالى الحماية من الفيضانات فان مشكلة تزايد السكان سوف تتفاقم قليلا ـ والمعروف أن التكنولوجيا تسبب دائما هذا النوع من التغيرات الطبيعية والسيطرة على ذلك تنصب أساسا على التأكيد ان الخير ترجح كفته على الشر. والمصريون على علم تام بجميع هذه المشاكل ويعملون بجدارة فى التغلب عليها .

والنظام الكهربائى فى مجموعه عند أسوان يمكن الاعتماد عليه بكفاءة عالية وسوف يؤدى خدمات ممتازة لسنوات عديدة مقبلة .

ومجموعة توليد القوى الكهربائية فى أسوان قد صممت بصورة تحفظية للغاية . وهذه سياسة حكيمة لاقامة مثل هذا الانشاء ـ ومع تشغيل السد العالى بكامل طاقته تجرى الآن عمليات خاصة

بتنفيذ ضخم لكهربة الريف يستكمل فى ظرف خمس سنوات تقريبا وهدف هذا البرنامج هو تزويد سكان القرى بالتيار الكهربائى اللازم لاضاءة منازلهم ورفع المياه اللازمة من النيل لرى اراضيهم وتشغيل آلات اخرى لتنفيذ اعمال كانوا يؤدونها يدويا .

وتستهلك الصناعات الآن مقدارا كبيرا من الكهرباء وهذا الاستهلاك مطرد فى الزيادة حتى انه من المنتظر ان يصل الاستهلاك فى مصر عام ١٩٨٠ الى ما يزيد على ما فى وسعها أن تنتجه من الكهرباء ولذلك فهى مثل الولايات المتحدة تبحث عن مصادر جديدة لانتاج القوى .

ان السد العالى فى اسوان هو بلا شك احدى العجائب الهندسية الحديثة فى عصرنا الحاضر ويعود على مصر بفائدة اقتصادية هائلة ومع ذلك فان حكومة مصر دائبة على دراسة جميع نواحيه السلبية منها والايجابية ، مع مراقبتها والعمل على سرعة معالجتها .

حملة الصحف الغربية :

ولعل فى هذه الشهادة الأمريكية ردا على الحملة التى بدأت على السد العالى فى وقت مبكر على صفحات الصحف الغربية .. فمنذ عام ١٩٦١ — وبعد اعلان القرارات الاشتراكية فى مصر — والصحف الغربية تواصل حملة مسعورة ضد السد العالى ..

فى مقال بعنوان اخطاء فى التقديرات ذكرت جريدة « برس ديمو كاميرون فى ٣ يونيو ١٩٦١ » انه رغم ان ملء الخزان قد توقف ، وانه ترتب على ذلك تاجيل تنفيذ المشروعات الصناعية وان كميات كبيرة من الماء تخرج من ناحية الصحراء الليبية ، ومن الناحية الاخرى تجاه البحر الاحمر .. وان المصريين توجهوا الى المهندسين الالمان طلبا للعون ..

وفى ١٨ نوفمبر ١٩٦١ نشرت جريدة « تلغـراف » ببرلين الغربية .. « ان صعوبات تنفيذ سد اسوان بمصر العليا تصبح اكثر خطورة .. السوفيت لا يعلنون كما هو واضح لماذا سحبوا الذين يديرون المعدات .. ان تطور الاحداث يسير نحو فضيحة هائلة .. وتقول الانباء ان الرئيس ناصر توجه شخصيا بطلب العون من الرئيس الامريكى كنيدى لمواصلة العمل »..

وفى ١١ ديسـمبر ١٩٦١ نشرت « بنويسـنور خـرزا يتونج بسويسرا ان العمل متوقف الآن بأسوان »

وفى ١٣ يناير ١٩٦٢ نشرت جـورنال دى جنيف انه « لن ينشأ السد العالى قريبا .. بل ومن المحتمل الا يكتمل البنـاء اطلاقا » .

وفى ٢٧ مارس ١٩٦٢ نشرت زيود كورير بالمانيا الاتحادية : ان خزان المياه الكبير لن يملأ .. وان سد أسوان مشحون بالمصائب .. وان التبخر اكبر من وارد المياه ..

وفى ٢١ مايو ١٩٦٤ نشرت بنوتزيت بالنمسا « نكتة سخيفة من اسوان .. ان خزان المياه الضخم لن يملأ ابداً .. فالتبخر اكبر من وارد المياه » ..

وفى ١٤ ابريل ١٩٦٤ نشرت نيويورك تايمز : أن بنـاء المشروع قد تأخر عن جدول الاعمال بمدة ١٨ شهراً .

هذه مجرد امثلة سريعة من الحملة على السد العـالى التى بدات فى صحف الغرب مع بداية التطبيق الاشـتراكى فى مصر .. ولا يخفى طبعا الهدف منها ..

ولقد استمرت هذه الحملة ، وتصاعدت ، وتضاعفت بعـد رحيل عبد الناصر ..

وانتقلت الحملة من بعض صحف الغرب .. الى بعض الصحف العربية .. ثم الى بعض الصحف المصرية .. ومن الاقلام الغربية الى اقلام وافواه بعض العرب .. ثم بعض المصريين .. ربما عن عمد .. وربما عن حسن قصد ..

صالح جودت والسد:

هذا هو السد العالى الذى تغنت به مصر كلها فى يوم من الايام . وتغنى به العرب جميعا رمزا لارادتهم ، وكان علامة مميزة على طريق كفاح الشعوب المستعبدة .

وكان كتابنا كلهم فى مقدمة الذين تغنوا بهذا الانتصار العظيم للارادة المصرية يوم تاميم القناة والاتجاه الى بناء السد العالى ..

صالح جودت مثلا يقول فى نهاية مقال طويل مجيد « وانا وقد جاوزت الاربعين اجد نفسى ، واشهد الله على اننى مستعد لان احمل الاحجار على كاهلى ، واكسر وادق الزلط لاساهم فى بناء السد العالى » (١) .

ويوم يذهب عبد الناصر ليفجر الديناميت ايذانا بتحويل مجرى نهر النيل لاول مرة فى التاريخ تبارى كل الكتاب فى الحديث عن مآثر السد العالى وغنت ام كلثوم قصيدة من شعر الشاعر الكبير عزيز اباظة تقول كلماتها :

كان حلما لخاطرا فاحتمالا ... ثم اضحى حقيقة لا خيالا
عمل من روائع العقل جئناه ... بعلم ، ولم نجئه ارتجالا
انه السد فارقبوا مولد السد ... وباهوا بيومه الاجيالا

---

(١) المصور ٣١ اغسطس ١٩٥٦ .

يفتح الرزق وهو سد فينساب ... جنوبا فى ارضنا وشمالا
ويشيع الحياة تنبض نبتا ... يغمر الجدب نوره والرمالا
ويقى النهر نزوه المسرف المحتاج ... يلهـوا فيتشر الاموالا
حقق المعجزات عزم جمال ... فاحمدوا الله ان حباكم جمالا
هو والنيل واهبا السد ... هذا سال تبرا وذاك فاض نضالا
حين الوى بعهده مقرض المال ... وصد الصديق عنا وملا
واستدار التاريخ ينظر هل يستسلم ... الليث ام يصول نضالا
قال : انى بانيه ، واعتز بالله ... وبالحق فاسترد القنالا
قالها من صميم افئدة الشعب ... فكانت اقواله اعمالا
واذا هبت الشعوب الى الغايات ... شقت لنيلهن الجبالا

ومصطفى أمين أيضـا :

ولا يفوت مصطفى امين ان يسجل هذا الحدث التاريخى فى مقال طويل يقول فيه : اليوم يضغط جمال عبد الناصر على زر فتنفجر اهرام فى تاريخنا ، تصنع مجدا خالدا لبلادنا تخلق جيلا جديدا فى امتنا .. حول نارها الى نور ، ورمالها الى ذهب ، وصحراءها الى حضارة وصناعة وتعمير ..

« اليوم يضغط جمال عبد الناصر على زر فتنفجر آلاف الاطنان من الصخور ، ويكون هذا الدوى الهائل ، هو الاجراس التى تدق معلنة الفجر الجديد ، وهو مدفع الافطار لشعب صام آلاف السنين ، وعاش فى حرمان ، وذل .. وفقر وبؤس ، وفى استغلال واستعباد ، وهو صوت النفير يبشر امة ، ويقظة شعب

هو الاذان يدعو الملايين الى صلاة جديدة ، هو ختام قصة ، وبداية قصة ، هو نهاية عصر ، وبداية عصر .. هو مغرب الحرمان ، ومشرق الرخاء ، وهو الانطلاق الكبير الى عصر الصناعة والكهرباء . هذا السد لم نصنعه بدمنا ، واعصابنا وعرقنا ، بأرواحنا وبايماننا .. نصنعه بقلوبنا .. بالتضحيات التى بذلناها ، الضحايا التى قدمناها ، بجهادنا ، وكفاحنا ، بالمعارك التى خضناها ، بالمواقف التى وقفناها بصمودنا وثباتنا ، والقنابل التى تنهال فوق رؤوسنا .. بقوة احتمالنا للحصار السياسى والحصار الاقتصادى .. باعتمادنا على انفسنا ، بمحافظتنا على استقلالنا وحيادنا ..

ان عبد الناصر عندما يفجر الديناميت اليوم ، يشق فى الصخور طريق المستقبل لنا ، انه يفتح فى الجرانيت الطاقة التى سيدخل منها ضوء العصر الجديد .. انه معجزة شعب مشى فى سنين قليلة الطريق الطويل بين العبودية والحرية ، وصعد من هاوية الاحتلال الى قمة الاستقلال ، واثبت ان الحرية ليست ان احطم القفص الذى اعيش فيه بل ان تعمل الايدى التى كسرت القيود لبناء مستقبل جديد لهذا الجيل والاجيال المقبلة .

اننا فى الماضى كنا نغمض أعيننا لنحلم ، ولكننا اليوم نفتح عيوننا لنرى احلامنا تتحول الى حقائق ، كنا نعيش على امجاد الماضى ، واليوم نصنع امجادا للمستقبل .. كنا نهتف للرخاء الذى نصنعه ، كنا نعيش فى يومنا ، واليوم نعيش فى غدنا .

باسم الله نبدأ العصر الجديد ، اعلامنا هى مداخن مصانعنا، وهتافاتنا هى دوى آلامنا واحلامنا هى مشروعات نحققها ، واهدافنا هى ان نرفع مستوى كل فرد فى بلادنا .

باسم الله نحمل معولنا ، لا نهدم به الا لنبنى ، ولا نحطم الا لنشيد ، ولا نحفر الا لرفع البناء عاليا .

باسم الله نفجر الصخر ونقيم سدا يحمينا من الجوع والحرمان ، ويقينا من الظلم والظلام .

باسم الله نملأ بلادنا بالمصانع ، والكهرباء وبالارض الطيبة .

باسم الله نمشى الى المستقبل رافعين رؤسنا فخورين بأن هذا الجيل لم يأت بالحرية فقط وانما يجيء مع الحرية بالرخاء الذى حرم منه هذا الشعب العظيم (١) .

الدنيا تتحدث عن السد :

ويواصل مصطفى امين غزله فى السد العالى فى العدد التالى مباشرة ، فكتب عن السد العالى العظيم قائلا :

الدنيا كلها تتحدث عن السد العالى ، كأن شعبنا خرج فجأة من قبور النسيان والاهمال والضعف والاستكانة تحت الشمس .

كأن معجزة لم تخطر ببال احد قد تحققت ، كان الذين اطلقوا الاشاعات عن انهيارنا وافلاسنا صدقوا اكاذيبهم ، ثم فوجئوا بالحقيقة الهائلة ففتحوا افواههم فى دهشة وذهول .

ان الذى يقرأ صحف العالم اليوم لا يستطيع الا ان يفرك عينيه فى دهشة وعجب لا يصدق ان هذه الصحف التى قالت يوما ما اننا انتهينا خرجت تشهد بأن جمال عبد الناصر حقق نصرا لن يخطر ببال احد . وأن الصحف التى توهمت يوما اننا

---

(١) اخبار اليوم ٩ يناير ١٩٦٠ .

انحزنا ، واننا بعنا حريتنا لنشترى المساعدات عادت تعترف اليوم بأن جمال عبد الناصر هو المحايد الحقيقى فى العالم اليوم ، وانه اثبت ان سياسة الحياد الحقيقى هى السياسة النافعة لبلاده ، وان الذين تخوفوا من ان ينزلق الى هذا المعسكر او ذاك المعسكر لم يكونوا يعرفون القوة العجيبة التى يختزنها هذا الشعب العجيب ، وزعيمه الشاب المؤمن بالحرية ، والاستقلال .

اننى قرات فى صحيفة امريكية مقالا يتحدث عن هذه الاعجوبة ، وهذا النصر ، وينتهى المقال بجملة « اننا تاخذ تعظيم سلام » لجمال عبد الناصر . قرات المقال وارتعشت الجريدة فى يدى ، اننى اذكر فى وقت العدوان اننى طرت الى امريكا واجتمعت بصاحب ورئيس تحرير الجريدة نفسها ، قال لى يومها ان المعلومات التى لديه ان مصر لن تتحمل الضغط السياسى ، والاقتصادى ، الانهيار مؤكد ، ان الافلاس قريب ، وقلت يومها ان الذين استطاعوا الانتصار على العدوان ، قادرون ان ينتصروا على الضغط .. والذين قاوموا الجيوش بقنابلها ومدافعها ، قادرون ان ينتصروا فى حرب الجوع .. وهز راسه غير مصدق ، وقال ان اى شعب لن يتحمل هذا .. وقلت له : اننا لسنا كأى شعب .

ومضى اقل من أربع سنوات ، وجاءت الجريدة نفسها تعترف بكل هذا ، وتعترف بهذا النصر العظيم .

انهم حاربونا لانهم لم يفهمونا ، لم يبصروا قوة هذا الشعب، وتصميمه على النصر ، لم يصدقوا ان العرب متحدين غير العرب المتفرقين ..

لم يخطر ببالهم ان هذا الشعب قادر فى عهده الجديد ان يصنع المعجزات ، ان يحول السد الى مجد .. ان يحفر باظافره

طريقه فى الصخور ، لم يعرفوا اننا بعثنا من جديد واننا خرجنا من الاقفاص ولن نعود اليها ، واننا نعرف طريقنا ونعرف ان ايماننا بوطننا ، وبشعبنا يجعلنا نصنع المعجزات ، ولن يكون هذا آخر نصر لنا .

« انه واحد من انتصاراتنا ، وستجيء بعد ذلك انتصارات لا يحلم بها حتى الذين فتحوا افواههم دهشة وهم يسمعون انفجار الديناميت معلنا مولد الفجر الجديد .. ان سنة ١٩٦٠ يجب ان نسميها سنة السد العالى .. وستكون سنة الانتصارات ! » (١) .

ولم يكن مصطفى أمين وحده .. كان كل الصحفيين .. وكل الكتاب .. وكل الفنانين .. كان كل الشعب يتغنى بالسد العالى .. ويحس انه يخوض أكثر معاركه قسوة لبناء صرح للارادة المصرية ، وكان الآلاف الذين يعملون فى السد يحسون انهم فى معركة تحد وان عليهم أن يثبتوا انتصارهم فى هذه المعركة .. و .. و .. واقيم السد العالى ..

واثناء ضراوة الحملة المشتدة ضد السد العالى .. واجهت مصر أخطر فيضان فى تاريخها الطويل .. كان يمكن أن يغرقها .. ويتلف ملايين الملايين من الجنيهات ويغرق آلاف الافدنة ، ويقتل آلاف الانفس .. وحمى الله مصر من هذا الفيضان الخطير بالسد العالى ..

وزير الرى الحالى :

وعندما امتلأت بحيرة السد العالى بالمياه لأول مرة ذهب وزير الرى المهندس عبد العظيم أبو العطا ليشهد الاحتفال التاريخى بهذه المناسبة .. وشرح المهندس ابو العطا قصة السد العالى منذ البداية فقال :

---

(١) اخبار اليوم ١٦ يناير ١٩٦٠ .

« حين أقام الشعب المصري بنيان السد العالى .. اقام رمز قدرته ، وجسد مظهر حياته .. وتغلب على الطبيعة .. واسلس قيادة النهر .. وكبح جماحه .. وابدع اكبر مشروع للتخزين المستمر فى العالم .. ، ووضع صرح التنمية الاقتصادية .. وفجر طاقات الانتاج .. واعطى بداية لعصر النهضة الشاملة ..

« ولقد تعاون الفكر المصرى ، مع الفكر الشرقى والغربى .. فى وضع صورة لمشروع السد العالى ، فجاء السد نتاج فكر مشترك .. اخذ مظهر وحدة الفكر العالى ..

« وتعاون الشعب المصرى ، مع شعب الاتحاد السوفيتى الاشتراكى ، فى بناء السد العالى ، فكرا وجهدا ومالا .. فكان نتاج هذا الجهد والعرق والمال .. رمزا حيا لما يمكن ان يثمره التعاون الحر المنزه بين الشعوب ، وان اختلفت مذاهبها الاجتماعية والسياسية ، تقديرا واعجابا وصداقة ..

« وهكذا أصبح السد العالى ، فى عداد مشروعاتنا ، اكبر انجازاتنا على الاطلاق .. بل هو ثورة فى تاريخ النهر ، لا تقل عن حدث أكتشاف منابعه ..

« كذلك ، صار السد العالى ، فى صحفنا المصرية ، سجلا للاصالة ودليلا للبقاء .. ورمزا للقدرة على البذل والعطاء ..

وبدقة ، وموضوعية ، اصبح هذا المشروع العظيم ، لشعبنا العظيم ، قدرة له على العجز .. وقوة على الضعف .. وغنى من الفقر .. ومفتاحا الى الخير .. وطريقا الى النصر ..

واوضح المهندس عبد العظيم ابو العطا وزير الرى ، كل الحقائق حول السد العالى عندما قال :

ولقد بدأ تنفيذ مشروع السد العالى فى ٩ يناير ١٩٦٠ ،

وانتهت مرحلته الاولى وتحويل مجرى النهر فى منتصف مايو ١٩٦٤ ، وارتفع البناء حتى منسوب (٥٠ ر ١٣٢) مترا فوق سطح البحر .. وتم الحجز عليه لاول مرة فى ذلك العام ..

وهنا ، اود ان اتوقف لحظة عند ذلك التاريخ .. صيف عام ١٩٦٤ ، عندما واجهنا اول فيضان بعد انتهاء المرحلة الاولى للسد العالى ببضعة اشهر فقط .. وكانت مواجهة قاسية .. كان فيضانا خارقا فى الارتفاع ، حيث بلغ ايراد النهر فيه ١١٤ الف مليون متر مكعب .. ولولا وجود السد العالى ، لاطاح هذا الفيضان بالزرع .. واهلك الحرث .. ، ولولا وجود السد لهدمت جسور وقرى .. وغرقت أراض زراعية كثيرة ..

وامكن فى ذلك العام حماية البلاد من كارثة محققة ، نتيجة لهذا الفيضان ، المدمر .. بل امكن فى ذلك العام ايضا ، ان نحتجز التصرفات الزائدة أمام السد .. ليصبح لدينا اول رصيد مائى يوفره لنا السد العالى .

السد واحداث الفيضانات :

« وجاء فيضان عام ١٩٦٨ ، الذى انخفضت تصرفاته خلال شهر سبتمبر من ذلك العام الى اقل من فيضان عام ١٩١٣ ، الذى يعتبر اشد الفيضانات انخفاضا منذ عرفت ارصاد النيل العليا ..

وعلى امتداد تلك الاعوام ، حتى عام ١٩٧١ ، كان السد العالى هو درع الامان لنا .. ولولا وجوده فى تلك السنوات الشحيحة الايراد ، لتعذر ملء الحياض التى لم يكن تم تحويلها

بعد .. ولولا وجوده كذلك — لعانت الزراعات القائمة من ندرة المياه ، ولتعرضت التنمية الزراعية لهزات عنيفة .. ، ولكن السد العالى ، كان له فضل امداد الزراعة المصرية باحتياجاتها من مياه الرى فى جميع السنين ..

وجاء فيضان عام ١٩٧٢ ، منخفضا جدا .. شحيحا جدا فى ايراده .. ، قريب الشبه بفيضان سجلته ارصاد النيل ، على امتداد نحو مائة عام .. وبلغ ايراد النهر عند أسوان فى ذلك العام ٥٣٫٧ مليار متر مكعب ..

« ولولا وجود السد العالى .. لكان عام ١٩٧٢ هو عام القحط والمجاعة .. ، ولكن بفضل مخزون المياه امام السد ، روت الارض ، واتت آكلها .. وما شعر أبناء هذا الوطن بمخاطر قحط مروع .. كاد أن يعصف بنا فى هذا العام لولا السد العالى .

كيف حقق السد أهدافه :

قد يكون ما قاله وزير الرى سبق أن تردد فى آراء كثير من الخبراء الذين تحدثوا عن السد ، وتردد أيضا فى حديث وزير الرى السابق .. وأساتذة كلية الزراعة ، والهندسة ، ومع ذلك فانه لابد من سرد كل هذه الشهادات الواقعية حتى يقتنع الذين لا يريدون الاقتناع أبدا لاسباب فى نفوسهم .. يقول المهندس عبد العظيم أبو العطا : ان الاهداف الرئيسية لانشاء السد العالى ، قد تحققت بالكامل .. وأولها حجز مياه النيل التى كانت تذهب هباء الى البحر كل عام .

.. وها نحتفل بامتلاء بحيرة ناصر .. أمام السد — ولاول مرة — الى نهاية سعتها المخصصة للتخزين المستمر .. حيث ارتفع منسوب المياه فيها الى ١٧٥ مترا ، الذى يكفل الوفاء باحتياجات الزراعة فى مصر والسودان ..

ومن الأهداف المرسومة التى تحققت :

١ — تحسين المناوبات الصيفية ، وضمان الاحتياجات المائية لجميع الزراعات القائمة والمستجدة ..

٢ - التوسع فى زراعة الارز ، حيث بلغت المساحة المنزرعة بهذا المحصول عام ١٩٧٤ الى ١٠٥٣ر١ مليون فدان ..

٣ - التوسع فى زراعة الذرة الصيفى والنيلى ، حيث وصلت مساحتها عام ١٩٧٤ الى ٢٥٤ر٢ مليون فدان ..

٤ - تحويل الاراضى الحوضية الى الرى الدائم فى مساحة ٩٧٣ الف فدان ، وامكن زراعتها محصولين بدلا من محصول واحد ..

٥ - اضافة مساحة جديدة من الاراضى المستصلحة بلغت ٩١٢ الف فدان ، موزعة على محافظات الجمهورية .. ادت الى رفع المساحة المحصولية عام ٧٤ الى ٠٣ر١١ مليون فدان ..

٦ - تحسين حالة الملاحة .. نتيجة لاستقرار مناسيب المياه بمجرى النيل ..

٧ - بلغ صافى الدخل الزراعى عام ٦٣/٦٤ اى قبل انشاء المرحلة الاولى من السد العالى ٤٧٥ مليون جنيه ، ارتفع الى ٦٤ر٧٧٥ مليون جنيه عام ٦٩/٧٠ ، ثم وصل الى ٤ر١٠٢١ مليون جنيه عام ٧٣/١٩٧٤ ..

اى ان صافى الدخل الزراعى قد زاد منذ عام ٦٣/٦٤ الى عام ٧٣/١٩٧٤ بمقدار ٤ر٥٤٦ مليون جنيه .. ويقدر صافى الدخل الزراعى لعام ٧٤/٧٥ بنحو ١٣١٠ مليون جنيه ..

٨ - بلغت الطاقة المولدة من محطة توليد كهرباء السد العالى ، منذ بدء تشغيل أولى التربينات فى أواخر عام ١٩٦٧ ، وحتى نهاية عام ١٩٧٤ حوالى ٢٢ مليار كيلووات ساعة .. تعادل وفرا فى الوقود المستهلكة لتوليد الكهرباء قيمته ٦٨ر٥٥ مليون جنيه ..

١٠ - خلق مجال فسيح لتشغيل الآلاف من العمال ، وفتح ابواب الرزق لهم .. اذ بلغت العمالة فى مشروع السد العالى والمشاريع المترتبة عليه من بدء العمل حتى انتهائه ٢٤٥ مليون عامل يوم ..

١١ - تهجير أهالى بلاد النوبة ، الى موطنهم الجديد بكوم امبو ، وتهيئة المجتمع المناسب لاقامتهم .. مع توفير المرافق والخدمات الضرورية لخلق مجتمع جديد متكامل ..

١٢ - تحسين الثروة السمكية .. والمستهدف حاليا هو رفع كفاءة انتاج بحيرة ناصر ، للوصول الى ٤٠ طنا يوميا ..

١٣ - وقاية آثار مصر الخالدة - من غرق كانت تتعرض له مع فيضان كل عام ونشطت اعمال البحث والتنقيب .. ونقلت المعابد الأثرية الى حيث أصبحت بعيدة عن مياه النيل ..

١٤ - خلق جيل من المهندسين ، والفنيين ، والعمال المهرة الذين اكتسبوا خبرة وكفاءة فى تشغيل وتنفيذ وادارة المشروعات الهندسية الكبرى ..

وهذه تعتبر فى حد ذاتها ، زادا وفيرا يعين على انطلاقة اكبر واشمل فى مثل هذه الأعمال الكبرى .. ليس فى مصر وحدها ، وانما على امتداد الوطن العربى والافريقى كذلك ..

أروع الأعمال الهندسية :

تدرج امتلاء بحيرة ناصر امام السد العالى ، منذ بدءالتخزين المستمر عام ١٩٦٨ ، اذ تراكمت المياه فى البحيرة سنة بعد اخرى .. ليتكون منها رصيد يضمن الوفاء باحتياجات الزراعة مهما انخفض ايراد النهر .. او جاء شحيحا فى تصرفاته ..

ويبلغ طول البحيرة امام السد ٥٠٠ كيلو متر ، ومتوسط عرضها ١١ر٨ كيلو متر ، ومسطحها ٥٩٠٠ كيلو متر مسطح ..

كما تبلغ اقصى سعة للتخزين فيها ١٦٤ مليار متر مكعب .

وفى ختام كلمته قال المهندس عبد العظيم ابو العطا :

حسبنا ان نذكر ، ان العائد المقدر ، من السد العالى ، فى ثلاثة اعوام .. جاء اولها بفيضان خطر عام ٦٤ ، وثانيها بفيضان قحط شديد عام ٧٢ ، وثالثها بفيضان بالغ الخطورة عام ١٩٧٥ .

حسبنا ان نذكر ان السد العالى ، قد كفانا ، او حمانا فى هذه السنوات ، الثلاث .. بما لا يقل تقديره عن عشرة آلاف مليون من الجنيهات ، أو عشرين ضعفا لما انفق عليه ..

لم يفقد السد العالى ، أرض مصر ـ خصوبتها ـ ولم ينحر قاع النيل .. ، لم تنهل جوانبه ، ولم يتصدع السد او يهبط جسمه .. ولم تتسرب مياهه أو يضع مخزونه نحرا وتسربا ..

كل ما تركه السد العالى من آثار ، وما صاحبه من ظواهر .. كانت امرا طبيعيا بقى فى حدود المسموح به .. بل ودون ذلك بكثير ..

ماذا تقول اذن ؟

لا اجد ما اتمثل به ، خيرا مما قالته دائرة المعارف البريطانية : « ان السد العالى عمل من اروع الاعمال الهندسية فى التاريخ » ..

شهادة وزير الرى السوداني :

وكان للمهندس يحيى عبد المجيد وزير الرى فى السودان الذى حرص على حضور الاحتفال ، راى :

« ان امتلاء بحيرة السد العالى بهذه الصورة التى نراها تمتد جنوبا وتطفو مياها فوق مساحات شاسعة من ارض السودان، انما تلغى الحدود بين البلدين لتؤكد الوحدة الأصيلة بين الشعبين .

واشاد الوزير السودانى بالسد فقال انه صرح يحمى اقتصاد مصر والسودان ، وان ذلك قد تأكد فى عام ٧٢ الذى شح فيه ايراد النيل » .

رئيس هيئة السد .. والمتشككون :

وقال المهندس عبد الله زيتون رئيس هيئة السد وخزان اسوان : ان السد الذى يقف شامخا فى وجه التحديات والاتهامات التى وجهت اليه ليتحدى اليوم بوصوله الى درجة الامتلاء اولئك الذين شككوا فى امتلائه وفى مقاومة بنيانه لدرجة الامتلاء وقال ان ستار السد التى صممت كفاءتها لتحجز ٦٠ ٪ من ضاغط المياه على السد اثبتت الارصاد انها تحجز ٩٦ ٪ .

« ان كمية المياه المخزونة اليوم امام السد مائة وواحد وعشرون مليارا وثلاثمائة مليون متر من الامتار المكعبة وما زال منسوب المياه آخذا فى الارتفاع حيث يتم تخزين المياه الواردة فى السعة المخصصة للوقاية من الفيضانات ومن المحتمل ان يصل المنسوب هذا العام الى ١٧٦٫٥٠ مترا .

« وقد نجح السد العالى هذا العام فى حماية البلاد من غوائل الفيضان الخطير الذى لم يسبق له مثيل خلال القرن الحالى اذ استمر ايراد النيل مرتفعا مسجلا ارقاما تزيد عن المليار متر مكعب فى اليوم لمدة عدة ايام متتالية بلغت نحو خمسة وعشرين يوما .

وقال المهندس مصطفى صبرى رئيس منطقة كهرباء الوجه القبلى ان انتاج محطة كهرباء السد فى العام الماضى وحده حققت ٥٢ ٪ من جملة الطاقة المولدة فى مصر اذ انتجت ٤٥٠٠ مليون كيلووات ساعة كان يلزم لتوليدها من المحطات الحرارية كميات من المازوت يزيد ثمنها على ٤٠ مليون جنيه بالأسعار العالمية الجديدة .

عبد الناصر .. خبير السدود :

ان الحملة على السد العالى ، يمكن ان تهدأ اذا ما تأكد القائمون بها ان عبد الناصر لم يكن صاحب فكرة مشروع اقامة السد العالى ، وان الفكرة كانت موجودة قبل الثورة بخمس سنوات .

فجمال عبد الناصر لم يكن مهندسا ، ولم يضع رسومات السد ، كما انه لم يشارك فى وضع تصميمه ..

ولقد بدأ التفكير فى تنفيذ مشروع السد العالى منذ الايام الاولى لقيام ثورة يوليو ١٩٥٢ .

ففى الشهور الاولى للثورة صدر قانون بانشاء « المجلس الدائم لتنمية الانتاج القومى » وهو هيئة مستقلة لها شخصيتها الاعتبارية ، وتلحق برئاسة مجلس الوزراء ، ورئيس الوزراء هو رئيسها الأعلى « ولم يكن عبد الناصر رئيسا للوزراء » .

وجنـد المجلس عشرات من الخبراء ، والفنيـين فى مختلف المجالات لاجراء دراسات علمية واسـعة بهدف تنمية الانتـاج القومى .. وعلاج أوجه الضعف فى البنيان الاقتصادى المصرى ..

كان المجلس يبحث الوسائل والمشروعات التى تزيد الانتاج، وتصونه وتوسع الرقعة الزراعية والصناعية ، وتسد الاحتياجات المباشرة للبلاد ، الى جانب حصر موارد البلاد ، وربطها بخطـة للتنمية ..

زيادة الانتـاج :

وكانت دراسات مجلس الانتاج فى سنة ١٩٥٢ تشـير الى ان معدل الزيادة الطبيعية فى السكان كان فى الربع الاول مـن هذا القرن ار١ ٪ فى السـنة ، واذا به يزيـد الى ٥ر٢٪ فى السنوات الاخيرة ، وينبه الى انه لا توجد دلائل تشير الى احتمال نقصان هذه النسبة . .

وانه اذا طبق هذا المعدل على عدد السكان وقتئذ وهو ٢٢ مليونا ، فان الزيادة تكون نصف مليـون نسـمة فى السـنة أى بمعدل ٦٠ فردا فى الساعة .

تقرير عن البطـالة :

وفى خلال السـنوات مـن ١٩٣٧ حتى ١٩٤٧ كان معـدل الزيادة السنوية فى الايدى المحتاجة للعمل نحو ٩٠ الف شخص يدخل منهم ميدان الصناعة حوالى ١٨ الف سنويا ، نظرا لما تميزت به هذه الفترة من توسـع صناعى ، التحق ما يقرب من ١٩ الف شخص بميـدان الزراعـة وامتصت ميادين التجـارة والنقـل والخدمات العامة والشخصية اغلب الزيادة نظرا لنشاط مجال الخدمات فى فترة الحرب العالمية الثانيـة ، ولوجـود القـوات

الاجنبية وزيادة مطالبها من تلك الخدمات ولكن هذه المجالات لم تستمر مفتوحة للعمل بعد انتهاء الحرب بحيث يمكنها ان تمتص الزيادة السنوية للايدى العاملة ، مما ترتب عليه انه كان هناك نحو ٣٧٦ الف شخص فى عام ١٩٤٧ معطلين لا يؤدون عملا منتجا .

ورأى مجلس الانتاج : ان الأيدى العاملة ستزيد من عام ١٩٤٧ حتى ١٩٥٧ بحوالى ١٣٠ ألف شخص يدخلون سوق العمل سنويا .. ولابد ان توضع خطط لاستيعاب هذه الطاقة البشرية الفائضة فى مختلف مجالات العمل المختلفة .. بحيث توضع مشروعات عاجلة .. الى جانب المشروعات الطويلة المدى .

شركة المانية درست المشروع :

ومن هنا كان مشروع السد العالى احد المشروعات الهامة لزيادة الانتاج الزراعى والصناعى على السواء ..

ولقد قامت عدة بعثات فنية مصرية فى اكتوبر سنة ١٩٥٢ باجراء ابحاث ودراسات استكشافيه للمشروع ولموقعه ، وتعاقدت الحكومة مع شركة « هوختيف » الألمانية لتدرس مشروع اقامة سد عال بمنطقة أسوان ، وتكررت هذه الابحاث التى شاركت فيها بعثات مصرية متعددة ومصلحة المساحة ، وسلاح الطيران المصرى الذى قام بعمل صور جوية للمنطقة .

وفى تقرير مجلس الانتاج القومى لسنة ١٩٥٥ دراسة قام بها مهندسو مصلحة الرى تقول بالنص انه « دلت مباحث وزارة الزراعة على انه لا يصل لاراضى مصر الزراعية سوى نحو ١٣ مليون طن من الطمى فى العام ، ومعظم هذه الكمية تسحبها الحياض ، وسيهبط مقدار ما تسحبه بعد تحويلها لنظام الرى المستديم الى ٦ مليون طن ينتظر ان تفقد نصفها بعد انشاء السد العالى » .

« وتقدر قيمة العناصر الغذائية فى الطمى بمبلغ مليون جنيه ، ستهبط الى ٤٦٠٫٠٠٠ جنيه بعد اتمام تحويل باقى الحياض، وسنفقد نصف هذه القيمة بعد السد العالى ، اى مبلغ ٢٣٠٫٠٠٠ جنيــه ، وهى خســارة لا تعــد شــيئا مذكورا بالقياس الى ما ستجنيه البلاد من فوائد ، كمــا انها اقــل مما يصرف على التطهير سنويا .

ولا شك ان الميــاه الخالية نوعا من المواد العالقة تكون لهــا قابلية لحمل مواد اخرى من القاع او من الجوانب ، بمعنى ان مجرى النهر خلف الخزان الجــديد ســوف يتعرض للنحــر مما يؤدى الى بعض التآكل بالسواحل وانخفــاض المناسيب ، وسيستمر ذلك الا انه سيقل تدريجيــا الى ان يتم التوازن بين سرعة النهر وحالة المجرى .

وسيحدث التآكل بين أســوان وادفو ، والنهــر فى هــذه المسافة لحسن الحظ يجرى فى منطقة جبلية ، اما من ادفو الى اسنا فانه نظرا لتأثير قنــاطر اسنا سوف لا يحــدث تآكل يذكر فى هذه المسافة ، وقد يتكرر التآكل ايضا بين اسنا وقنا ، الا ان هذا يحتاج الى أعوام عديدة . ولامكان ملافاة الاضرار الناتجة من النحر ، فانه يحسن ان يكون الخزان عاليا ما امكن بحيث لا يسمح بصرف ما يزيد عن حاجة الزراعة ، ويصح الالتجاء الى انشاء هدارات خلف القناطر الحالية على النيل خلف اســوان ليتسنى تعلية المناسيب امامها ، أو قد يصح الالتجاء الى انشاء زياح لتخفيف الفائض من الخزان على الصحراء .

على ان هيئة السد العالى قد انتدبت احد الخبراء الامريكيين ممن لهم خبرة طويلة فى اجراء ابحاث مشابهة بأنهار امريــكا والهند ، للاشراف على تنفيذ برنامج شــامل لدراســة النحر

والاطماء بمجرى النيل مع ما يتبع ذلك من اخذ قراءات وعمل جسات بالقاع وقطاعات عرضية دورية على النهر ، وينتظر ان تستغرق هذه الدراسة عامين ، وان يصحبها تجارب على نماذج مصغرة بمحطة الابحاث بقناطر الدلتا ، يتم بعدها تقدير مدى النحر المنتظر حدوثه بمجرى النهر خلف السد العالى فى السنين التى تلى انشاءه ، وبذلك يمكننا الاستعداد لمقابلة هذا النحر حسب درجة خطورته فى احباس النهر المختلفة ، دون ان يكون فى ذلك اى تأخير او تعطيل لمشروعنا الحيوى .

دراسة مشكلتى الطمى والنحر :

اذن لقد كان هناك ادراك عميق منذ البداية لمشكلتى النحر .. والطمى ..

وعندما قدمت شركة « هوختيف » الالمانية ابحاثها عن السد العالى سنة ١٩٥٣ ، قام مجلس الانتاج باستدعاء لجنة من الخبراء العالميين لفحص هذه الابحاث ووضع المجلس امام هؤلاء الخبراء العالميين مسالتين لدراستهما هما : « الطمى ، والنحر امام وخلف السد » .

وطلب منهم الى جانب دراسة التصميمات المقترحة ، اقتراح اى تعديلات يرونها .

واجتمع الخبراء العالميون فى ابريل ١٩٥٤ وقاموا بمعاينة الموقع ، والاطلاع على الابحاث التى تمت كما فحصوا تقرير شركة « هوختيف » وقدموا تقارير مطولة فردية ، كما قدموا تقريراً جماعيا ..

رأى خبير أمريكى عالمى :

وقد طلب الخبراء العالميون - سنة ١٩٥٤ - فى تقاريرهم الاتصال بالخبير الأمريكى العالمى « كارل ترزكى » لمعرفة رأيه نظرا لما يتمتع به من شهرة عالمية فى انشاء السدود ، وفعلاسافرت بعثة من مجلس الانتاج القومى ، والتقت به أكثر من مرة وعرضت عليه جميع الابحاث التى تمت ومن بينها الابحاث الاضافية التى اشار اليها الخبيران العالميان المستر ا . س ستيل ، والمسيو اندريه كوين .

واجتماع عالمى للخبراء :

وفى ١٥ نوفمبر ١٩٥٤ عقد الخبراء العالميون اجتماعا ثانيا بمجلس الخدمات بالقاهرة حضره المستر « كارل ترزكى » والمستر « ا . س ستيل » الأمريكيان ، والمسيو « اندريه كوين » الفرنسى « والهومكس بروس » الالمانى والمستر « لورنزج ستراببب » الامريكى ، كما انضم اليهم « المسيو ا - ايسى » الفرنسى يوم ١٨ نوفمبر ثم « الهرمور » الالمانى يوم ٢٦ نوفمبر وكان البند الثانى من جدول اعمال مؤتمر الخبراء دراسة المسائل الخاصة بالاطماء ، والنحر المنتظر بسبب انشاء السد كما طلب اليهم دراسة تصميمات السد وابداء رايهم فيها واقتراح اى تعديلات يرونها ضرورية على المشروع .

توصيات الخبراء العالميين :

وقدم الخبراء العالميون فى ختام اجتماعاتهم يوم ٤ ديسمبر ١٩٥٤ تقريرا موحدا اجمعوا فيه على صلاحية مشروع السد العالى وقد شمل التقرير التوصيات الاتية :

١ - اقامة السد العالى عند الكيلو ٦ر٥ جنوب خزان اسوان حيث اتضح انه انسب واصلح المواقع الممتازة للسد .

٢ – ان انشاء السد العالى حسب التصميم الذى اعتمده الخبراء فيه اقصى الضمانات لسلامته مع وفائه بكافة المطالب التى انشىء من اجلها .

٣ – الشروع فورا فى حفر الانفاق الجانبية المقررة لتحويل مياه النهر .

٤ – اقر الخبراء برنامجا للتنفيذ يستغرق عشر سنوات يتم فيها انشاء السد العالى بجميع اجزائه ومشتملاته ..

٥ – يوصى الخبراء بضرورة القيام فورا باعداد الرسومات التفصيلية والمواصفات لاجزاء المشروع المختلفة ..

كان كل ذلك قبل بداية العمل فى السد العالى ، وقبل وضع اية طوبة فى بنائه ..

كل هذه البحوث ، وكل الخبراء من جميع انحاء العالم ابدوا رايهم ، ودرسوا المشروع ، بل وتحدثوا ايضا عن آثاره الجانبية ، وقد ضمن مجلس الانتاج تقريره كل هذه الدراسات ، وطبع ووزع على نطاق واسع فلم تكن الدراسات تتم فى الظلام كما انه لم يمنع اى كلام عن الآثار الجانبية ، بل ان الحكومة اوردتها ضمن تقريرها الذى طبعته عن مشروع السد عام ١٩٥٥ فى تقرير مجلس الانتاج .

تقرير المجلس القومى :

بالاضافة الى ذلك فقد عهد اخيرا الى المجلس القومى للانتاج والشئون الاقتصادية ، باجراء دراسة شاملة عن السد العالى فى عام ١٩٧٥ بعد ان اثيرت ضجة حول المشروع .

وقد اكدت الدراسة التى قام بها المجلس سلامة المشروع ... كما تعرضت لاهدافه ، وما تحقق منها ، وما لم يتحقق وآثاره الجانبية ، وتأثيرها على الاقتصاد القومى .

وقد بدات الدراسة بعرض عام لاهمية انشاء السد العالى ، والبحوث والدراسات التى سبقت تنفيذ المشروع . ومن بينها دراسات خبراء الغرب

المشروع التى تقرر بالنص « انه لا يوجد اى بديل لمشروع السد العالى » للانتفاع بالتخزين المستمر فى مجرى النهر ، وهو الوسيلة الوحيدة للحصول على المياة الاضافية ، فى اقصر وقت للاستمرار فى التوسع فى تقييم المشروع فى مصر والسودان .

وتضمنت دراسة العلماء المصريين فى المجلس القومى للانتاج – ١٩٧٥ – تقييما للمشروع وما حققه من اهداف فقالت :

– يرى المجلس ، بعد الاطلاع على الوثائق الخاصة بهذا الموضوع ، ان ثمة اتفاقا عاما على عدة نقاط ينبغى ابرازها مبدئيا وهى : –

أولا – ان السد العالى من ناحية التصميم والتشييد سليم فنيا ، ولم يثر اى خلاف على سلامة تصميمه أو انشائه من اى طرف من الاطراف .. بل يوجد اجماع على انه يعتبر من أهم الاعمال الهندسية العظمى فى العالم .

ثانيا – ان فكرة انشائه قامت بعد استغلال كل الموارد المائية المتاحة وفقا للنظم التى كانت متبعة لضبط مياه النيل قبل انشائه ، وانه بمقارنته بالمشروعات الاخرى البديلة يعتبر اكثرها صلاحية وقدرة على الوفاء الكامل لضبط مياه النيل ، بالاضافة الى اقامته على أرض مصر .

ثالثا – ان عملية توفير المياه للزراعة فى مصر لزيادة المساحة المزروعة اصبحت مسألة حيوية بعد ان هبطت حصة الفرد من الارض بما يهدد بانخفاض مستوى المعيشة ، خاصة مع أزدياد عدد السكان المطرد .

ما تحقق من أهداف المشروع :

تعرض التقرير بعد ذلك الى الاهداف التى كانت منتظرة من السد العالى لبيان مدى ما تحقق منها والعائد من تحقيقها فقال ان هذه الاهداف هى :

١ – حجز مياه النيل التى كانت تذهب الى البحر كل عام دون الاستفادة منها ، وقد تحقق هذا الهدف بالكامل ، والواقع ان السد قد وفر المياه اللازمة للزراعة فى كل من مصر والسودان ، على الرغم من التوسع الزراعى فى البلدين ، وخاصة ان السودان كان قد اتخذ الاجراءات لانشاء خزان الروصيرص على النيل الازرق بسعة تصل الى ثلاثة مليارات ، وبدا بالفعل فى تنفيذ سياسة اقتصادية تهدف الى التوسع الزراعى الافقى قبل انشاء السد العالى ، مما كان يتعذر معه رى الحياض فى مصر فى ٣٩ سنة من ٥٦ سنة ، فى سلسلة مشابهة للسنوات من ١٩٠٠ حتى ١٩٥٥ ، وتعذر ملء خزان أسوان فى الغالبية العظمى من هذه السنوات »

٢ ـ توليد الطاقة الكهربائية : قدر متوسط اقصى طاقة كهربائية يمكن الحصول عليها من محطة كهرباء السد العالى بحوالى ٨ مليارات كيلو وات ساعة فى السنة بفرض حدوث سلسلة من ايراد النهر مشابهة للسنوات (١٩٠٠ـ١٩٦٠)، مع تصرف اجمالى قدره ٥٦ مليار متر مكعب .

وقد تزايدت الطاقة الكهربائية المتاحة من السد العالى تدريجيا ، نتيجة لتزايد تصرف الرى وارتفاع منسوب البحيرة امام السد ، من ٣ر٤ مليار كيلو وات ساعة فى عام ١٩٦٨ الى ٥ر٦ مليار كيلو وات ساعة فى عام ١٩٧٤ ، حيث بلغ منسوب المياه امام السد ٦٠ر١٧٠ مترا. ومن اجمالى الطاقة الكهربائية المولدة للبلاد عام ١٩٧٤ البالغ مقدارها ٨٥٢٥ مليار كيلو وات ساعة ، ولد السد العالى ٤٤٥٩ مليار كيلو وات ساعة ، فى حين أن ما تولد حراريا ومن طريق خزان اسوان بلغ ٤١٠٥ مليار كيلو وات ساعة ، اى ان السد العالى قد امد الشبكة الموحدة للبلاد بنسبة تبلغ ٩ر٥٢٪ من اجمالى الطاقة الكهربائية .

وقد انخفض الوقود المستهلك فى توليد الكهرباء حراريا (مازوت) من ٣ر١٢٦١ الف طن فى عام ١٩٦٧ الى ٣ر٨٤٢ الف طن فى عام ١٩٧٤ ، اى بمقدار ٣٣٪ على الرغم من الزيادة المطردة فى تغذية استهلاك البلاد من الكهرباء ، كما انخفضت تكاليف الوقود المستعمل فى توليد الكهرباء حراريا من ٥ر٩ مليون جنيه فى عام ١٩٦٧ الى ٣ر٦ مليون جنيه فى عام ١٩٧٤ .

وذلك على أساس السعر المحلى للمازوت ، وطبقا لهذا السعر يقدر اجمالى الوفر فى تكلفة الوقود المستهلك نتيجة لتوليد كهرباء السد العالى ، من نوفمبر ١٩٦٧ الى نهاية عام ١٩٧٤ ، بمبلغ ٥٠ مليون جنيه .

وفى حالة احتساب السعر العالمى للمازوت يرتفع هذا الوفر الى ٨٢ مليون جنيه ، منها ٤٢ مليونا فى سنة ١٩٧٤ وحدها ، ذلك على اساس ما استخدم من كهرباء السد العالى حتى الان وليس المتاح منها ، وسوف تزداد قيمة الوفر فى تكلفة الوقود مع تزايد استخدام الكهرباء المولدة من السد العالى .

وقد بدأ تحقيق هذا الوفر عقب نكسة ١٩٦٧ فى فترة تعرضت خلالها المنشآت البترولية بالسويس للتدمير ، وتقدر تكلفة الطاقة الكهربائية على النحو التالى :

١ ـ على القضبان ٥٠٠ ك.ف للسد العالى : ٢٠٧ر٢ مليم ك.و./س .

٢ ـ على الشبكة جهد ٢٢٢/١٣٢ ك.ف : ٠٧٢ر٥ مليم ك.و./س .

ويدخل ، فى حساب هذه التكلفة ، استثمارات كهربة الريف . واسترداد راس المال خلال ١٥ سنة و ٣٪ عائد لقطاع الكهرباء .

اما اسعار المحاسبة للاستهلاك فتدخل فيها عناصر اخرى عديدة .

ويلاحظ ان الطاقة الكهربائية المتاحة من السد العالى لم تستغل حتى الآن استغلالا كاملا وان ما يستغل منها يبلغ مقداره ٢ر٦٩٪ فقط من الطاقة المتاحة ، وينقل منها حاليا ٦٠٠ ميجاوات شمالا للقاهرة ، فضلا على احتياجات صناعة السماد بأسوان . كما سيتم نقل ١٠٠٠ ميجاوات شمالا فى عام ١٩٨٠ وهو ما يمكن نقله طبقا للاعتبارات الفنية لاتزان الشبكة جهد ٥٠٠ كيلو فولت ، والمقرر ان تستنفد مشروعات التصنيع جزءا كبيرا من النسبة الباقية .

٣ - التوسع الافقى فى رقعة الارض الزراعية : تم استصلاح ٩١٢ الف فدان فى مصر منها ٧٥٥ الفا على مياه السد العالى موزعة على محافظات الجمهورية ، وقد توقفت عمليات الاستصلاح لاسباب لا ترجع الى عدم توافر المياه .

٤ - تحويل اراضى الحياض الى نظام الرى الدائم : تم تحويل اراضى الحياض التى كان مقررا تحويلها - على مياه السد العالى الى نظام الرى الدائم ، وتبلغ ٩٧٣ الف فدان ، منها ٦٠٢ الف حوض بحث و ٣٧١ الف مزدوج وحبوب .

وقد ادى ذلك بجانب التوسع الافقى ، فى الرقعة الزراعية الى زيادة فى المساحة المحصولية كما يبين من المقارنة التالية :

١٩٥٢	١٩٧٢	١٩٧٣	١٩٧٤
مليون فدان	مليون فدان	مليون فدان	مليون فدان
٣٠٧ر٩	٨٣٠ر١٠	٩٧٦ر١٠	٠٠٩ر١١

وذلك على الرغم من المساحات الضخمة من الارض الزراعية التى استخدمت فى التوسع العمرانى وبناء المصانع .

٥ - ضمان التحكم الكامل فى ايراد مياه النيل : تحقق هذا الهدف بالكامل ، وساهم السد العالى فى التوسع الرأسى بالنسبة لمحاصيل كثيرة ومن اهمها الاذرة، نتيجة انتظام وتوافر مياه الرى على مدار العام .

٦ - التوسع فى زراعة الارز : تحقق هذا الهدف ، لقد امكن زراعة ما يزيد على مليون فدان ارز سنويا وبانتظام مقابل مساحة تراوحت ما بين ٣٧٠ ، ٧٠٥ الاف فدان فى الخمسينات .

كما زادت انتاجية الفدان من الارز واصبحت اعلى من طنين للفدان باستمرار، نتيجة لتوفير كميات المياه بانتظام .

ونتيجة للعاملين السابقين ارتفعت صادرات الارز حتى وصلت قيمتها الى ٥٥ مليون جنيه عام ١٩٦٩ ، الا ان زيادة الاستهلاك المحلى ادت الى خفضها . ولولا هذا التوسع فى زراعة الارز لاضطرت البلاد الى استيراده من الخـــارج لحاجة الاستهلاك المحلى .

٧ ـ تحسين الصرف فى الاراضى الزراعية : لم يتم تحقيق هذا الهدف لعــدم انشاء شبكة المصارف الضرورية ، والاسراف الكبير فى استخدام مياه الرى بعـد توافرها طوال العام .

٨ ـ الوقاية من الفيضانات العالية ومواجهة الحاجة الى المياه فى الفيضانات المنخفضة تحقق هذا الهدف بالكامل . فقد جاء فيضان ١٩٦٤ اعلى من المتوسط ، وكان مستواه لو انطلق سيرتفع فى كثير من الجهات من منسوب الجسور ، ممــا كان يعرض البلاد لمخاطر جسيمة ، ومنذ سنة ١٩٦٤ تتابعت الفيضانات الواطية فى أعوام ١٩٦٥ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ١٩٧٢ ولولا وجود السد العالى والمياه التى حجزها امامه ، لتعذر توفير المياه الكافية لرى الرقعة الزراعية ، وخصوصــا فى عام ١٩٧٢ ، الامر الذى عاد بفوائد كثيرة على الزراعة فى مصر .

٩ ـ استغلال الثروة السمكية والزراعية فى بحيرة ناصر : تنتج بحـــيرة ناصر حاليا حوالى ٣٠ طنا من الاسماك يوميا ، اى نحو عشرة آلاف طن سنويا ، والهدف الوصول بالانتاج السمكى الى ١٦٠٠٠ طن فى السنة .

أما زراعة شواطىء البحيرة فلم يتم استغلالها بعد بسبب الظروف الاقتصادية التى مرت بها البلاد .

١٠ ـ تحسين حال الملاحة بسبب استقرار مناسيب المياه : نتيجة لاســـتقرار مناسيب المياه بالنيل والقنوات الملاحية طوال العام فقـــد تحســن حال الملاحة النهـــرية .

١١ ـ تحسين الملاحة بين مصر والسودان : لم يتم تحقيق هذا الهدف لعـــدم استكمال تنفيذ المشروعات الخاصة به ، ويجرى حاليا دعم الخط المـــلاحى بين البلدين بوحدتين جديدتين .

١٢ ـ زيادة الدخل القومى : كانت الزيادة فى الدخل القومى الناتجة عن السد العالى ومشروعاته تتمثل فى العناصر التالية :ـ

آ ـ زيادة الدخل الناتج عن استصلاح واستزراع المساحات العاطلة ، ولم تتحقق هذه الزيادة بالكامل ، نتيجة لعدم استكمال استصلاح الاراضى التى كان من المتوقع استصلاحها لاسباب لا تتصل بعدم وفرة المياه (تم استصلاح ٧٥٥٫٠٠٠ فدان من المساحة المستهدفة وهى ١٫٣٠٠٫٠٠٠ فدان) .

٢ ـ الدخل الناتج عن تحويل ارض الحياض الى الرى المستديم ، وقد تحقق ذلك بالكامل حيث تم تحويل جميع اراضى الحياض الى الرى المستديم .

٣ ـ زيادة الدخل الناتج عن الطاقة الكهربائية المتولدة عن السد العالى ، ولم تتحقق هذه الزيادة بالكامل لعدم استغلال الطاقة الكهربائية المتاحة من السد بالكامل (الطاقة المستغلة حاليا توازى ٦٩٫٢٪ من الطاقة المتاحة) .

٤ ـ زيادة الدخل الناتجة عن تغيير التكوين المحصولى للاراضى : وزيادة المساحات المزروعة بالارز والذرة وقد تحققت هذه الزيادة بالكامل ، بالاضافة الى توفير التكاليف التى كانت تنفق سنويا لدرء اخطار الفيضانات .

الآثار الجانبية :

وقد درس المجلس القومى للانتاج ـ سنة ١٩٧٥ ـ ايضا الاثار الجانبية للمشروع وتحدث عنها بصراحة فقال :

من الطبيعى ان يكون لمشروع السد العالى ـ كما لكل مشروع كبير ـ اثار جانبية بعضها ايجابى سبق التعرض لها ويمكن بالمزيد من الدراسات والبحوث العلمية استغلالها استغلالا افضل وزيادة عائدها الاقتصادى .

والبعض الآخر من هذه الآثار الجانبية سلبى ، ولا بد من متابعة هذه الآثار الجانبية السلبية متابعة مستمرة ، واجراء البحوث العلمية عليها لتلافى اية اضرار قد تنجم عنها . ولقد كانت اغلب هذه الاثار موضع التفكير والبحث فى نفس الوقت الذى كانت تدور فيه دراسة المشروع نفسه واعداد تصميماته .

ونورد فيما يلى بيانا لاهم هذه الاثار السلبية وما ينبغى ان يتوافر لها من اهتمام وعناية حتى يمكن بالبحث والدراسة والتخطيط العلمى القضاء على اثرها او اضعافه الى اقصى حد ، حيث لا تحدث اضرار تلحق باقتصاديات ومرافق البلاد .. وهذه الاثار هى :

اولا ـ النحر فى مجرى النهر وعلى شواطىء الدلتا الشمالية : اتضح للمجلس ان هذا الموضوع كان موضع دراسة وبحث عند دراسة مشروع السد العالى منذ

البداية وبناء على هذه الدراسة والبحث توقع دارسو المشروع انه من الضرورى على اى حال بالنسبة لشواطئنا متابعة الموقف واجراء ما يلزم خالية من اغلب كميات الطمى التى ترسب فى حوض الخزان والاحباس التى تتعرض للنحر هى :

١ - الحبس بين السد العالى وسد اسوان ، وقد راى الدارسون للمشروع نتيجة للابحاث التى تمت : أن خزان اسوان القديم الذى انشىء على قاع صخرى يهيىء ضابطا مستديما خلف السد العالى وعلى ذلك فسوف لا يحدث سلسلة طويلة المدى من النحر يمكن أن تحدث اضرارا للسد وكل نحر من هذا القبيل سيكون ذا صفة محلية ويمكن التنبؤ به وعلاجه بوسائل الانشاء الحديثة .

٢ - النحر المحتمل ان يحدث لمجرى النهر خلف اسوان ، وهو يمثل الاثر الكبير للسد ويستدعى اكبر قدر من المتابعة والبحث والدراسة لان زيادة هذا النحر اذا ترك دون مواجهة ستصل الى مواقع القناطر القامة على النيل مما يهدد سلامتها .

واليوم بعد انقضاء عشرة اعوام على تشغيل السد العالى لوحظ هنا أن النحر يسير بمعدل قليل على الرغم من انه فى مرحلة ما بعد اقفال مجرى النهر كانت تمر خلف السد العالى تصرفات عالية لحدوث فيضانات مرتفعة ولصرف كميات كبيرة من المياه لملء الحياض الباقية التى لم يكن قد تم تحويلها الى الرى المستديم فى ذلك الوقت ، ولو ان النحر الان قد ظهر بمعدل ضئيل ، خصوصا منذ عام ١٩٦٨ حيث بدأ التخزين القرنى يحجز كل المياه الزائدة من الاحتياجات ، فقد كان ذلك لان التصرفات من الخزان لا تتجاوز التصرفات المطلوبة لسد الاحتياجات الزراعية ، كذلك يلاحظ ان الدراسات الموسعة لايجاد الحلول المناسبة لمقاومة هذه الظاهرة قد تأخرت بعض الوقت ، وكانت الضرورة تقضى بالانتهاء منها بحيث يمكن ان يبدأ تنفيذ مشروعات علاج النحر بعد اتمام السد العالى مباشرة .

٣ - النحر فى شواطىء الدلتا المطلة على البحر الابيض المتوسط بعد ان امتنع وصول كميات الطمى اليها .

ان تآكل هذه الشواطىء ظاهرة قديمة ترجع الى ما قبل انشاء السد العالى، بسبب تأثير امواج البحر على الشواطىء ، وكانت تتخذ الحلول الوقائية لوقف التآكل فى هذه الشواطىء ، وتواجه دولة كهولندا نفس الموقف بطريقة أكثر حدة، على انه من الضرورى على اى حال بالنسبة لشواطئنا متابعة الموقف واجراء ما يلزم من البحوث والدراسات لتنفيذ المنشآت الوقائية الضرورية فى الوقت المناسب .

ثانيا ـ الفواقد من بحيرة ناصر : تبين للمجلس ان موضوع الفواقد ، سواء بالتبخر او التسرب او التشرب ، قد تناولته بحوث ودراسات مختلفة عند وضع تصميمات السد العالى ، اشترك فيها الخبراء العالميون والمصريون وقدرت هذه الفواقد من التبخر والتسرب بحوالى ١٠ مليارات .

وقد قدر هؤلاء الخبراء ان أقصى فاقد بالتسرب من بحيرة ناصر يبلغ حوالى ٢ مليار متر مكعب فى العام عند منسوب ١٨٠ مترا ، وقرروا انه من غير المحتمل حدوث فواقد غير طبيعية من هذه البحيرة .

وقد اجريت تجربة عملية على طول المجرى من السد العالى الى خلفه ثبت منها ان مقدار التسرب من بحيرة ناصر لا يتعدى مليار متر مكعب فى العام عند منسوب ١٨٠ ، ومنذ اقفال مجرى النهر . حساب الموازنة المائية كل عام بتقدير الفواقد من بحيرة ناصر ، سواء بالتبخر او التسرب او التشرب حيث قيست فعلا على الطبيعة ، ووجد فى السنوات العشر الماضية ان مقدار الفواقد بالتبخر والتسرب والتشرب المحسوبة نظريا فى كل سنة من السنوات المشار اليها اكثر من الفواقد المقاسة فعلا على الطبيعة .

ثالثا ـ اثار نقص الطمى على خواص الانواع المختلفة من التربة والمحاصيل وعلى الاحتياجات السمادية :

اتضح للمجلس أن هذا الموضوع كان من بين الموضوعات التى تناولتها الدراسة فى أثناء تصميم المشروع ، واتجهت هذه الدراسة وجهتين : الاولى تتصل بأثر الاطماء على حوض الخزان ، الذى سيتكون امام السد ، والوجهة الثانية تتصل بأثر حرمان الارض من ظاهرة الاطماء السنوية على خواص التربة والمحاصيل الزراعيــة .

فبالنسبة للاطماء بحوض الخزان ، دلت البحوث التى اجريت فى أثناء تصميم المشروع على ان السعة الحية من الخزان لن تتأثر بسبب رواسب الطمى قبل مضى ٥٠٠ سنة ، حيث أعدت سعة مليئة بالخزان مقدارها ٣٠ مليار متر مكعب لاستيعاب رواسب الطمى : وقدرت شركة هوختيف الالمانية المدة التى يتم فيها نفاد السعة الميتة بخزان السد العالى بحوالى ٧٥٠ سنة ، كما قدرتها البعثة التى استدعتها الحكومة المصرية عام ١٩٥٣ لبحث مشروع السد العالى ما بين ٥٠٠ ، ٩٠٠ سنة . كما ان خزان هوفر الذى اقيم بالولايات المتحدة والذى تم حساب الاطماء بحوضه على نفس هذا الاساس اثبتت حالة الاطماء الواقعى بعد ذلك عند التشغيل ، ان عمره سوف يطول الى ضعف الارقام المقدرة .

ومع ذلك فان متابعة رصد هذه الظاهرة أمر ضروري لتتبـــع ترسب الطمي بالخزان ، ويلاحظ تطور هذه الظاهرة واتفاقها مع الحساب الذى تم .

اما بالنسبة للاطماء الخاص بالارض الزراعية والمحاصيل فان الدراسات التي اجريت عند التصميم قد اثبتت ان كمية الطمي التى تمر عند وادى حلفا فى العام فى موسم الفيضان تقدر بمقدار ١١٠ ملايين طن : كان الجزء الاكبـر منها يذهب الى البحر . وقدر ما تستفيد منه الارض الزراعية بحوالى ١٣ مليون طن يدخـل منها الاراضى الحوضية ٧ر٣ مليون طن .

ومن ثم يمكن تعويض ما فقدته الارض نتيجة لحجز السد العالى للطمي الذى لا يمثل مشكلة بالنسبة لقيمته الغذائية ، اذ يمكن تعويضه بكميات من الاسـمدة الصناعية والعضوية وفقا لاحتياجات المحاصيل المختلفة ، كما انه من المعـروف ان كثيرا من الدول تعتمد على الاسمدة الكيماوية فى الزراعة لعدم وجـود الطمي اصلا فى موارد مياهها .

اما بالنسبة لاثار الطمي على الخواص الطبيعية للتربة ، فان الامر يقتضى المزيد من الدراســة .

رابعا ــ التغير فى تركيب المياه ببحيرة السد العالى وتقييم اثر هذا التغير : تواجه السدود المتعددة فى العالم ، والتى تقوم بتخزين المياه على نحو ما هو واقع بالنسبة للسد العالى ــ بمثل هذه الظاهرة وبتصدى لعلاجهـا بالوسائل العلمية المناسبة لظروف وطبيعة مياه كل من هذه السدود لاختلافها ، ويجرى الان بحث خاص بهذا الموضوع كما يتضمن البحث الوسائل التى يمـكن اتخاذها لتلافى اى اثار يثبت البحث وجودها .

خامسا ــ انتشار الحشائش المائية : ترجع هذه الظاهرة الى ما قبل انشـــاء السد العالى ، وتزايدت بعد انشائه ، وكانت وزارة الرى ومعهد البحوث الزراعية تعنى بها وتدرس وسائل مقاومتها فى المجارى المـائية والنيل وبعد انشاء السد العالى تشارك اكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا فى دراسة هذا الموضوع .

سادسا ــ تاثير السد العالى على المياه الجوفية : تمت دراسة هـذا الموضوع فى اثناء مرحلة دراسة مشروع السد العالى واشترك فى البحوث بعض الخبـــراء الاجانب ، ولا تزال هذه الدراسات مستمرة ، وتدل النتائج الاولية لهذه الدراسات على ان المناسيب لم تصل بعد الى حالة الاستقرار كما ان الهبوط الكبير الذى كان متوقعا فى مناسيب المياه الجوفية لم يتحقق .

ومما هو جديد بالذكر أن أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا قد تعاقدت مع الوزارات المختصة على دراسة مشكلة المياه الجوفية لاهميتها الخاصة في ثلاثة مشروعات هي :

(أ) مشروع دراسة المياه الجوفية بمناطق التوسع بغرب الدلتا .

(ب) مشروع مصادر المياه بالساحل الشمالي الغربي .

(جـ) مشروع دراسة معامل الامان بالدلتا والوجه القبلي .

اما بالنسبة لارتفاع مستوى المياه الجوفية السطحية بالاراضي الزراعية ، فان الجزء الاكبر من هذه النسبة يرجع الى تأخر تنفيذ مشروعات الصرف والاسراف في استخدام مياه الري ، والى نظام الري المستديم الذي لا يتيح للاراضي فرصة للراحة كما كان متبعا من قبل بأراضي الحياض ، وفترة الشراقي بأراضي الري المستديم .

وعلى ان هذه الظاهرة ليست بالكلية .. ظاهرة جديدة .. وانما ترجع الى سنوات قبل انشاء السد العالي : وقد رسمت الخطط لمواجهة هذه الظاهرة بالتوسع في مشروعات الصرف العام والحقلي ، مع ترشيد استخدامات مياه الري.

سابعا ـ اثر حجز الطمي على مواد البناء « الطوب » :

ان حجز الطمي امام السد قد ادى الى غياب احد المصادر الهامة لصناعة الطوب وهو الطمي الناتج من تطهير النيل والترع ، وهذه الظاهرة تمثل مشكلة قابلة للحل لعدة أسباب ، منها :

١ ـ ان هناك كميات كبيرة من الاتربة والطفلة الصالحة لصناعة الطوب يمكن استغلالها وتكفي احتياجات مصانع الطوب الحالية مددا طويلة بدلا من الطمي .

٢ ـ انه يمكن ايضا صناعة الطوب الرملي والاسمنتي والاحجار ، وكلها بدائل للطوب الاحمر تمتاز بالمتانة واكثر اقتصادا ..

٣ ـ ان كثيرا من المباني الحديثة لا تستخدم الطوب ، وهناك اتجاه سوف يزداد تدريجيا لانتاج المباني الجاهزة .

ثامنا ـ اثر السد العالي في انتشار الملاريا والبلهارسيا والاوبئة الاخرى :

اثبتت الدراسات التي تمت حتى الان بالنسبة لمرض الملاريا . نظافة بحيرة ناصر من اي اثر للبعوض الناقل للملاريا .

أما بالنسبة لمرض البلهارسيا فالمعروف انه توطن في اقاليم الدلتا منذ ادخل نظام الري المستديم فيها وتتخذ اجراءات الوقاية من هذا المرض منذ زمن بعيد .

على انه من الضرورى اتخاذ كافة الاحتياطات الوقائية الحديثة للقضاء على القواقع الناقلة لهذا المرض فى مناطق الحياض التى حولت الى الرى المستديم ، وقد شرعت وزارة الصحة فى ذلك فعلا .

كما أن تنفيذ برنامج الصرف المغطى الذى يشترك فيه البنك الدولى للانشاء والتعمير يقضى بدراسة الوسائل الحديثة لمكافحة البلهارسيا فى مناطق الحياض التى حولت الى الرى المستديم بالوجه القبلى .

تاسعا ـ هجرة بعض أنواع السمك من الشواطىء الشمالية ـ السردين :

ان حرمان البحر الابيض المتوسط من الطمى الذى كان النيل ـ قبل انتهاء السد العالى ـ يصبه كل سنة فى مياهه ، ترتب عليه هجرة بعض أسماك البحر ، ومن بينها السردين ، عن الشواطىء المصرية الى شواطىء اخرى ، الامر الذى لوحظ معه نقص كبير فى محصول السردين فى السنوات الاخيرة .

وتجرى فى الوقت الحاضر ابحاث متعددة للتعرف على المواقع الجديدة التى تحولت اليها هذه الاسماك فى البحر ، بحيث يمكن تعقبه فى مواقعه الجديدة ، كما ظهرت بوادر جديدة تشير الى عودة هذا النوع من الاسماك الى شواطىء الدلتا فى منطقتى رشيد وعلى الساحل الشمالى الغربى حتى السلوم .

ومع ذلك فان النقص الذى حدث فى محصول السردين يمكن مقابلته من الثروة السمكية من بحيرة ناصر التى تعد مصدرا هائلا للثروة السمكية لم يتم استغلالها الاستغلال الاقتصادى الكافى حتى الان .

عاشرا ـ ملء بحيرة ناصر : كان من اهداف اقامة السد ، تخزين المياه الزائدة عن الحاجة الى أن يصل المنسوب الى ١٨٢ مترا يتم عنده الوصول الى السعة القصوى للتخزين ، وقد تبين من الارصاد الخاصة بمناسيب المياه امام السد انها سجلت المناسيب التالية :

عام ١٩٦٥ ـ ١٢٧ر٦٠ مترا ، عام ٩٧٠ ـ ١٦٤ر٨٨١ مترا ، عام ١٩٧٤ ـ ١٧٠ر٦٠ مترا .

ومن هذا يتضح ان استمرار تزايد البحيرة سنة بعد اخرى يسير وفقا لما كان متوقعا حسب ايراد النهر .

مرة أخرى فى مجلس الشعب :

وبعد كل الدراسات ، والتقارير ، وبعد ان أبدى كل الخبراء المصريين والعرب والعالميين رأيهم ، وبعد أن نوقش السد العالى فى مجلس الشعب اكثر من مرة ، وبعد دراسة المجلس القومى للانتاج ، وقف النائب علوى حافظ فى مجلس الشعب ليتحدث مرة اخرى عن السد العالى (١) واثار النائب مصطفى كامل مراد نفس الموضوع .

وقد جاء فى كلام علوى حافظ أنه « لا بد من تقييم امين للسد العالى وهل هو مشروع لرخاء مصر أم لا ؟ لقد تكلف بناء السد ٣٦٧ مليون دولار .. ودخلت مصر حرب ١٩٥٦ من أجل السد ثم فتحت مصر أبوابها للتسلل السوفيتى مع بناء السد .. وتنازلت مصر عن بعض الآثار القديمة التى تقدر بالملايين مثل معبد جادور ، وجانجور .. وهى معابد خالدة .. ولكن ماذا جاء من السد ؟ اين اكسير حياة الأرض ؟ الطمى انكمش والاسكندرية مهددة بالانكماش والانفصال عن مصر .. جدران النيل بدأت تتآكل وكل الخزانات والقناطر الموجودة على النيل معرضة للخطر ..

المشروع وصفه الخبراء الالمان :

وقد عقب المهندس عبد العظيم ابو العطا وزير الرى واستصلاح الاراضى على ما أثاره العضوان مصطفى مراد وعلوى حافظ ، حول الآثار الجانبية للسد العالى فى نفس الجلسة .. وقال ان السد العالى من شرف الشعب المصرى وهو الذى بنى

---

(١) جلسة اول يناير ١٩٧٥ ، وكانت الصحف قد نشرت من قبل ان النائب حمدى عاشور الوزير حتى آخر ايام عبد الناصر ، واحد الضباط الاحرار قد قدم سؤالا الى المجلس حول الاثار السلبية والجانبية للسد .

السد العالى فى ظل حصار اقتصادى استعمارى فرض من الدول الغربية فى عام ١٩٥٦ وما بعده .

واضاف ان الفكرة بدأت فى عام ١٩٥٢ باعتباره تغييرا جذريا يضمن حجز مياه النيل والاستفادة بها واكد وزير الرى ان هذا المشروع بالتخطيط العلمى وحده ما كان ليخرج الى النور لولا ان مزجت به الثورية .. وقال انه بدأت دراسات علمية حوله فى عام ١٩٥٤ مع خبراء من اكثر من دولة اجنبية . وقال البنك الدولى : ان المشروع مفيد جدا وعرضت علينا قروض من انجلترا والبنك الدولى . ولكن السياسة تدخلت فى ذلك الوقت وسحبت انجلترا والبنك الدولى القروض .. ولكننا صممنا على بناء السد .

واكد المهندس عبد العظيم ابو العطا وزير الرى ان الروس ليسوا هم الذين فرضوا علينا بناء السد العالى وانه لم يعترض خبير واحد على المشروع من الناحية الفنية .. وانه ليست هناك ملفات سرية للسد العالى لانه ملك للشعب كله .

واضاف انه فى عام ١٩٥٨ حينما بدأت المفاوضات مع الدول الشرقية كان امامنا تصميم للسد العالى وهناك خلاف بين التصميم والفكرة فالفكرة لا خلاف على اهميتها ولم تكن أبدا محل جدل ومناقشة .. وعندما عرض على الاتحاد السوفيتى التصميم الذى وضعه الخبراء الالمان كان لهم رأى آخر وتم تعديل القطاعات الاساسية فى التصميم .

نيكسون يأسف :

وقال وزير الرى ان نيكسون نائب رئيس الجمهورية فى عهد ايزنهاور حينما زار أسوان سجل فى سجل الزيارات قوله

« انني لم أسف على شيء الا انني كنت نائبا في حكومة رفضت السد العالي » كما ان دائرة المعارف البريطانية اكدت انه « أروع مشروع في القرن العشرين » علينا نحن ابناء هذا الجيل أن نفخر اننا بنينا السد العالي فلم يبنه جمال عبد الناصر أو الاتحاد السوفيتي .. ولكن بناه الشعب المصري .

واضاف ايضا : أريد أن أعلق على ما قاله العضو علوي حافظ ان الاتحاد السوفيتي اراد ان يستغل السد العالي للسيطرة على الاقتصاد المصري .. ولكنني اريد أن أؤكد أن السد العالي كان مثالا نموذجيا للتعاون بين شعبين ليته يكون في مجالات أخرى .

قال ان السد انقذ مصر من المجاعة مرتين .. عامي ١٩٧٢ عندما جاء الفيضان منخفضا و ١٩٧٥ عندما جاء الفيضان عاليا ولولا وجود السد العالي ما كان في استطاعتنا أن نروي الارض

فهل تكون هذه هي آخر المناقشات في مجلس الشعب ، وفي بعض الصحف ، وعلى بعض الالسنة عن السد .. لا اعتقد ذلك ..

لانه لو كان الهدف معرفة الحقيقة حول آثار السد لراجع المتحدثون كل ما قيل عنها .. ولو كان الهدف هو الاستفادة باقصى طاقة من المشروع الكبير لكانت لغة الحديث مختلفة .. ولو كان الهدف هو الحرص على المعرفة ، لاستطاع الذين يثيرون موضوع السد أن يعرفوا أكثر من الكثير .. ولكن ذلك كله ليس السبب من اثارة موضوع السد العالي ..

الرئيس السادات والسد :

ويضع احد الصحفيين السعوديين سؤالا محددا عن السد العالي أمام الرئيس أنور السادات ، ويجيب عنه الرئيس وتنشر الاجابة في مصر ايضا (١) ونحن ننقل بالنص السؤال واجابة الرئيس عنه . قال الصحفي السعودي للرئيس أنور السادات :

---

(١) جريدة الجمهورية ٢٦ فبراير ١٩٧٦ .

● لوحظ منذ فترة ليست بالقصيرة أن موضـوع السد العالى قد ابعد من المناقشة عن الصحف المصرية دون أن تصل تلك المناقشة الى الواقع الفعلى لدور السد وعدم قدرته فى تحقيق الجدوى الاقتصادية التى أقيم منها ، وأن التسلسل المنطقى لهذا الموضوع يجعلنا ندرك مقدار التضحيات التى تحملها الشعب المصرى سواء بالتنكيل بالعلماء الذين عارضوا اقامة السد ، وكذلك الاموال الطائلة التى تحملها والتى تمثل فعلا جزءا كبيرا من حجم الديون المستحقة للاتحاد السوفييتى •

أعتقد أنه من حق الشعب المصرى أن يخفف حجم هذه الديون من طريق تحميلها لمن كان سببا فيها دون الجدوى منها ..

وأجابه الرئيس السادات :

ـ عاوز أصحح وقائع هنا •• لأن السؤال بالصورة دى يسىء للبلد هنا وأنا ماحبش حاجة تصدر منكم تسىء لها •• قل لى ماهى قصة السد العالى••قل لى السؤال كده •• أرد عليك الان•

السد العالى سيظل يمثل أمجد معاركنا السياسية والعمرانية •• أمجد معاركنا السياسية من ناحية أنه تحدينا أمريكا وبريطانيا والغرب كله فبنيناه ••

ساعدنا السوفييت لكن الأساس فيه الجهد المصرى .. سأقول لك حاجة بسيطة ردا على كل هذه المناقشات •• نقطتين اثنين ـ عاوزكم تروحوا اسوان وتشوفوا سد أسوان القديم ، سد أسوان عبارة عن حائط فقط مسنود بسنادات •• ووراها ١٨٠ متر مياه تخزين ، أى انفجار صغير والماء أقوى شىء فى جرف السدود اللى أمامها وتذكروا مافعلناه احنا فى الحائط الترابى بتاع اسرائيل •• الماء استخدمناه .. ولا جت على فكر حد منهم .. المياه ضغطها اعلى شىء معروف ..

لو قنبلة صغيرة •• كانت تنفجر وراء هذا الحائط معناها أن مصر ماتزرعش الا بعد اصلاح السد ومعناها نجوع •

ده من الناحية الاستراتيجية ، ان قنبلة صغيرة تنهى اقتصاد مصر اللى هو أساسه الزراعة .. النهاردة السد العالى جبل .. لو ضربت فيه قنبلة ذرية لا تزيحه .. ده جبل مبنى .. جبل صخور رهيبة على قاعدة .. قاعدة النيل فى الحتة دى جرانيتية صخرية وحطينا فوقها صخور جرانيت .. جبل وقاعدته من تحت عريضة جدا وينتهى من فوق الشارع اللى بنمشى عليه ، فالقنبلة الذرية من الناحية الاستراتيجية حاجة بقى ثانية تفض هذه المناقشات وقتها .. لازم ندفع للحرية ثمن ..

الحقيقة فيه اللى أجنبى والحاقد والزعلان..طلعوا وتكلموا.. والسد العالى وصفته .. وصفته سنة ١٩١٣ كانت مصر لاتزيد عن أواسط افريقيا والحبشة . فى أغسطس .. ما جاش فيضان فبقيت أرض مصر لم تزرع .. بس كنا ٨ ـ ٩ مليون ما حاسش الشعب بيها .

سنة ١٩٧٢ ما جاش فيضان ، وان ارض مصر ـ ونحن ٣٦ مليون ـ لو الفيضان ده ما جاش ونص أرض مصر لم تزرع علما بأننا نزرعها دلوقت ٣ محاصيل فى السنة وموش مكفيانة وبنجيب أكل من برة ، لو حصل هذا فى سنة ١٩٧٢ أى خسارة كانت تلحق بمصر سواء ثمن المحاصيل .. سواء اللى مانبعت نشترى به أكل من بره .. مبلغ قد اللى صرفناه على السد العالى يمكن ٤ مرات .

اذن السد العالى عملية ناجحة كل ده بخلاف الكهرباء . ولكن اللى بيتكلم عنه البعض ان « كل مشروع فى الدنيا له آثار جانبية.. له فوائده التى لاتنكرها البديهة ولا العقل .. لكن بتكون له برضه بعض الآثار الجانبية ..

ده موجود فى تقرير السد العالى قبل مايبنى .. جينا خلينا هيئة السد العالى بعد ما كمل البناء لكن لازم تبقى الهيئة ـ وعلشان كده رجعنا هيئة الابحاث .. وتشوف الاثار الجانبيـة .. اللى بيعملها فى مجرى النيل . ولكن أنا باقول ان السد العـالى جاب

أضعاف ثمنه فى سنة واحدة وهى سنة ١٩٧٢ •• والكهرباء بلاش الى يوم الدين •

أخذنا ثمن السد ٤ مرات :

المحرر : بالنسبة للجزء الثانى من السؤال ؟

الرئيس : وهو •• ؟

المحرر : وهو احنا هل نستطيع ان نحاسب الاتحاد السوفييتى ؟

الرئيس : لا .. نحاسبه على ايه .. ده انت فى موسم واحد سنة ١٩٧٢ أخذت قد ثمن السد ٤ مرات ••

•• لان تبين اننا مخزنين ٣ فيضانات وراه لان السد يتملى بـ ٧ فيضانات فاحنا مخزنين ، فى سنة ١٩٧٢ ، جت ٣ فيضانات •• رحنا فاتحين فيضان منهم وراوين بلدنا وأكلنا ، العام التالى ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ جت الفيضانات عادية ، والسد الآن على وشك ان يملأ ، اذن مافيش خطورة لا استراتيجية من الناحيـــة العسكرية تهدد كيان البلد كلها ولا مجاعة نتيجة ان ما يجيش فيضان •• لأن المطر اللى ينزل ده من عند الله .

هل نعتقد أن هذه الاجابة يمكن ان تقنع البعض .. لا اظن .. لانهم مصممون على الا يقتنعوا ..

بداية المشروع عام ١٩٤٧ :

كان السد العالى نتيجة دراسات عديدة قامت فى مصر منذ عام ١٩٤٧ وعرض المشروع على المجمع الدولى العلمى الذى درسه قبل الثورة ، ورحب به وحوله الى المسئولين للتنفيذ ولكنه ظل ينتقل من وزارة الى وزارة ، ومن مكتب الى مكتب ويتســـكع فى أروقـة الدواوين الحكومية حتى قامت الثورة ، فحول الى المختصـــين فى مجلس الانتاج القومى ، وأعيدت دراسة المشروع بواسطة خبراء مصريين وبيوت خبرة عالمية غربية ، ثم بواسطة خبراء عالميين وانتهت الدراسات بمؤتمر للخبراء الذى اختتم أعماله فى القاهرة فى ديسمبر ١٩٥٤ •

كان المشروع يعنى بالنسبة لمصر توسعا فى الزراعة والصناعة ولكن امريكا كانت تعارض قيام قاعدة صناعية فى الشرق الاوسط مقرها مصر ، بعد أن عملت على أن تكون اسرائيل هى قاعدة الصناعة فى الشرق الاوسط •

والآن لنبدأ قصة نضال الشعب المصرى من أجل بناء السد العالى •• وكيف قاد عبد الناصر الشعب لهذا البناء ،، بعد معركة شرسة مع الغرب ، الذى تأكد له أن هذا السد هو أمل مصر ، وهو حياتها لذلك فقد عمد الى أن يخضع مصر ويقضي على عبد الناصر بعدم تمويله لبناء هذا المشروع الحيوى الكبير ••

عندما اتجهت مصر الى بناء السد العالى ، طلبت المساهمة الدولية المشروعة عن طريق البنك الدولى للانشاء والتعمير احدى مؤسسات الأمم المتحدة •

وفى أغسطس سنة ١٩٥٥ زارت مصر بعثة من البنك الدولى للانشاء والتعمير لدراسة المشروع ، وتقديم تقرير عنه •

صفقة السلاح :

بعدها بشهر واحد ، كان عبد الناصر قد يئس من الحصول على السلاح من الغرب ، ورأى أن الذين يسلحون اسرائيل لا يمكن أن يمنحوا مصر سلاحا تواجه به اسرائيل •• وان الذين اقاموا اسرائيل ودعموها وجعلوها قاعدة لا يمكن أن يسمحوا بسلاح يمكن أن يوجه اليها ، وبعد مفاوضات ومشاورات وطلبات استمرت منذ قيام الثورة حتى ذلك التاريخ لم ترسل أمريكا سلاحا الى مصر الا مسدسين اثنين هدية للرئيس نجيب ، وحتى هذان المسدسان احتج تشرشل على ارسالهما لانهما يحملان معان لا يوافق عليها•

واتجه عبد الناصر نحو المعسكر الشرقى يطلب سلاحا بعد أن أوفد بعثة استمرت شهورا فى الولايات المتحدة الامريكية ، وعادت بحقائب مليئة بالوعود ، أيقن عبد الناصر أنها كاذبة ومراوغة •

ولم ينس الغرب لعبد الناصر كسره لاحتكار السلاح ، كما لم ينس ان مصر كانت أول دولة عربية تعترف بالصين الشعبية ،

وتتبادل معها التمثيل الديبلوماسي في مايو من ذلك العـــام ٠٠ وقبلها ، وكانت مواقف عبد الناصر موضع استياء شـــديد في انجلترا وأمريكا ٠٠ فهو يشن حملة ضاريةضد الاحلاف العسكرية، ويرفض ربط المنطقة بأحلاف غربية مشبوهة ٠

ويجيئه دالاس ليقول له انه قد يوافق على عدم انضمام مصر الى حلف بغداد ، فذلك شأنها ، ولكنه لا يوافق على الحملة الشديدة التي يقودها عبد الناصر ضد الحلف ، ويرد عبد الناصر أنه يرفض الانضمام للحلفويعلن رفضه ، والشعوب العربية تؤيد هذا الرفض « ومن ناحيتنا في مصر لماذا ندخل أحلافا نواجه بها الشيوعية التي تبعد عنا خمسة آلاف كيلو متر بينما الاستعمار الانجليزى يعيش في بلادنا على بعد ٥٠ كيلو مترا فقط٠٠ » ويعلن عبد الناصر فجأة، وفي زيارته لمعرض صغير أقامته الشئون العامة للقوات المسلحة في سبتمبر ١٩٥٥ عن صفقة الاسلحة مع تشيكوسلوفاكيا ٠٠

كان المعرض مجرد مناسبة ، اراد ان يعلن فيها النبأ ، لكي يسبق وصول رجل المخابرات المركزية الذى اوفدته الى مصر في محاولة للتفاوض حول ماتردد من أن مصر ستعقد صفقة أسلحة مع الدول الاشتراكية ٠٠ كانت هذه المحاولة حلقة ضـــمن سلســلة حلقات المراوغة الغربية لكسب الوقت ولاحتواء عبد الناصر ، وقد رأى عبد الناصر الاعلان عن اتمام الصفقة بحيث يكون الأمر قـد انتهى عندما يصل مبعوث دلاس الى القاهرة ٠

ويقول يوجين بلاك مدير البنك الدولى للانشـــاء والتعمير : ان صفقة الاسلحة أدت الى أن تقنع امريكا وبريطانيا بمشروع السد العالى وتتحمس كلتاهما له وتهتم به » ٠٠

عملاء المخابرات الأمريكية :

وفي هذه الاثناء كانت الحرب ضد عد الناصر في ذروتها ٠٠ مؤامرات تدبر .. اذاعات مصر الحـرة وغيرها تسـتغل الفارين والمهاجرين و « المغتربين » والهـاربين من مصر في الهجـوم على عبد النـاصر ، ووكالة المخابرات المركزية تجند اعداء عبد الناصر

المقيمين فى الخارج يعملون لصالحها .. ضد مصر ، وضد عبد الناصر ونظامه .. واستطاعت المخابرات الأمريكية ان تلتقط عددا من المصريين الذين اضيروا من الثورة المصرية ليهاجموا مصر وعبد الناصر فى وقت كان كل ما يقوم به انه يخوض حربا ضارية ضد قوى الاستعمار فى المنطقة ، فالعملاء الذين احترفوا العمل ضد مصر ونظامها وجندتهم المخابرات الامريكية كانوا يهاجمون عبد الناصر فى تلك الفترة فقط لمواقفه ضد الاستعمار ، اذ لم تكن قد مضت على رئاسته للجمهورية سوى شهور معدودة ، ولم يكن خاض من المعارك سوى معاركه ضد الاحلاف •• ولم يكن قد انجز فى مصر سوى القضاء على الاقطاع ، وطرد الاستعمار البريطانى وكسر احتكار السلاح •

ولنسبق الاحداث قليلا لننقل نص برقية أرسلها السفير المصرى احمد حسين الى عبد الناصر من امريكا فى ٨ مايو ١٩٥٦ يقول فيها « ان دالاس أبلغنى أن هنرى لوسى صاحب « مجلتى تايم ولايف » أبلغه أن ونستون تشرشل قال له انه اذا كان عبد الناصر سيعمل على ان تفقد بريطانيا بترول الشرق الاوسط فلابد لعبد الناصر أن يرحل ، وأضاف دالاس ان بريطانيا تفعل كل ما فى وسعها لاقناع الولايات المتحدة بالأخطار التى تترتب على الغرب واصدقاء الغرب من سياسات عبد الناصر » ومضى احمد حسين يقول (١) انه يعتقد أن ما أبلغه اياه دالاس صحيح لأن المستر « هول » مستشار السفارة البريطانية فى واشنطن اطلق على عبد الناصر لقب « عدو الشعب البريطانى رقم واحد » ، فى محاضرة له ، وتابع احمد حسين قائلا : نقلت هذه الواقعة الى دالاس وقلت له ان جورج واشنطن كان عدو الشعب البريطانى رقم واحد هو الاخر ، عندما كان يحارب الاستعمار البريطانى » •

---

(١) عبد الناصر والعالم •

فكرة العرض السوفيتي :

في ١٨ أكتوبر ١٩٥٥ أبرق أحمد حسين السفير المصرى فى واشنطن الى عبد الناصر يقول له : « لقد اوضحت للمستر دالاس أنه من الحيوى بمكان أن تنال مصر دعم الولايات المتحدة فى بناء السد العالى ، وأبلغته أننا لانزال نفضل التعامل مع البنك الدولى، وبالرغم من ان الحكومة الروسية عرضت علينا شروطا افضل من تلك التى عرضها علينا البنك الدولى .

« وأبلغته انه لا يمكن ارجاء اتخاذ قرار فى هذا الأمر أطول من ذلك ، لأن مصر تعتبر السد العالى أكثر مشاريعها الاقتصادية اهمية وبالتالى فان اى ارجاء من شانه ان يؤثر على ثقة الشعب المصرى فى قدرة حكومته على تنفيذ مشروعاتها الكبيرة ، كما انه ليس من مصلحة البنك الدولى ان يرجيء الرئيس قراره بتمويل السد ، الى امد اطول لان من شأن ذلك ان يخلق ضغوطا على الرئيس لتمويل العرض » .

ولم يكن السوفيت حتى هذا الوقت قد تقدموا بعرض لتمويل السد ، ولكنها كانت مناورة سياسية من السفير المصرى ..

استعداد أمريكا للتمويل :

وفى نفس الشهر أصدرت وزارة الخارجية الامريكية تصريحا قالت فيه « ان الولايات المتحدة على استعداد للمساهمة فى تمويل مشروع السد العالى وفى تمويل مشروع وادي الأردن ، وان هناك مشروع مارشال للشرق الاوسط على نمط مشروع مارشال الاوروبى » .

وطلبت الولايات المتحدة ارسال مسئول مصرى كبير لبحث المشروع معه هناك ، فسافر الدكتور عبد المنعم القيسونى وزير المالية المصرى في نوفمبر سنة ١٩٥٥، والتقى بالمسئولين الامريكيين وحمله دالاس رسالة الى عبد الناصر تقول : ان الاتحاد السوفيتي

يساعد مصر بالسلاح وان ذلك يعنى الموت بينما ستساعد أمريكا مصر ببناء السد العالى .. وذلك يعنى الحياة (١) .

وفى منتصف ديسمبر ١٩٥٥ أصدرت الحكومتان الامريكيـة والبريطانية بيانا مشتركا ، اعلنتا فيه مساهمتهما فى تمويل المرحلة الاولى للسد بما قيمته ٧٠ مليون دولار تدفع منها الولايات المتحدة ٥٦ مليون دولار ، وتدفع بريطانيا ١٤ مليون دولار ، ويقرض البنك الدولى مصر ٢٠٠ مليون دولار دفعة أولى ثم تزيد الى ٤٠٠ مليون ، وتبحث الحكومتان بعد ذلك اشتراكهما فى المرحلة الثانية ، ولكن نص البيان الذى أرسل الى مصر كان مختلفا فقد تضمنا عدة شروط اعتبرها عبد الناصر ماسة بالسيادة المصرية ، وتدخلا فى سياسة مصر وفرضا للوصاية عليها ..

شروط الغرب للتمويل :

كان الشرط الذى أرسـل الى مصر يطلب أن تقـدم مصر ضمانات بأنها سوف تركز كل جهودها وبرامجها فى التنميـة على اقامة السد العالى ، وانها لن تبعثر مواردها على مشروعات أخرى ، وأنها سوف تفرض قيودا على اقتصادها تمنع الانفاق الضخم على السد العالى مما يؤدى الى التضخم المالى .

« وان يعلق قرض البنك الدولى على أن تقدم مصر ضمانات كافية بألا تعقد اى قرض خارجى ولا اية اتفاقيات دفع بغير موافقة البنـــك » .

أى أن مصر لاتستطيع أن تعقد أية قروض أو اتفاقيات دفع ، مع الاتحاد السوفيتى ـ طبعا ـ دون موافقة البنك الدولى .

ويقول المستر ايدن فى مذكراته انه كان يعتقد أن بقاء عبد النـاصر مرتبط بما يستطيع او لا يستطيع تقديمه للملايين من الفلاحين الجائعين ، وهؤلاء هم الذين قدمت لهم الثورة قانون الاصلاح الزراعى وكان أول ما قدمته ، ولكنه لا يكفى ولا تستطيع

---

(١) ارجو ان يقرأ مهاجمو السد العالى بامعان كلمات دلاس ..

ان تقدم شيئا حقيقيا الا عن طريق السد ولهذا فان بقاء عبد الناصر مرهون باقامة السد ومن هنا يمكن ارغامه على أن يتعاون ويستجيب لنا او « يستجيب او يستسلم » على حد تعبير يوجين بلاك بعد ذلك (١) .

الصلح مع اسرائيل :

وعندما يتحدث ايدن عن هذه الفترة يقول انه « تجمعت لدينا من كل المصادر السرية ، وغيرها معلومات عن نشاط المصريين في أنحاء الشرق الاوسط ، في ليبيا والاردن والعراق ، وفي كل مكان كان صوت العرب ينشر العداء ضد الغرب وضد أذناب الاستعمار، كما كان يسمي أصدقاءنا وذلك في نفس الوقت الذي كانت تطلب منا فيه الاموال لبناء السد . وقد بحث سلوين لويد المسألة مع الأمريكيين ووجد تأييدا » .

« اشتكى نوري السعيد مرة شكوى مرة ، وكذلك كميل شمعون من أن مصر تحصل بتهديداتها على ما تريد من الغرب ، بأكثر مما يحصل عليه الحلفاء المخلصون » .

وكان هناك شرط آخر هام وجوهري، وجدت امريكا أن الحاجة الى تمويل السد العالي أحسن وقت لفرضه ، ذلك الشرط الذي كتبه هربرت همفري وكيل الخارجية الامريكية بخط يديه ويقضي بأن يكون « السد مقابل الصلح » مع اسرائيل .

وكتبت النيويورك تايمز ـ لسان حال الخارجية الامريكية تقول : تربط حكومة الولايات المتحدة بين مقترحاتها بمساعدة مصر مساعدة طويلة المدى لمدة عشر سنوات لبناء السد العالي وتسوية النزاع المصري الاسرائيلي ، وتعتقد حكومة الولايات المتحدة الامريكية ان المساعدة الاقتصادية لمصر تستطيع ان تؤدي الى تسوية عامة للموقف في الشرق الاوسط .

---

(١) ميلاد ثورة ـ محمد عودة .

وفى هذا الوقت أعلن « بن جوريون » أنه لابد ان يقابل عبد الناصر وجها لوجه ، وأن أية مفاوضات للصلح مع مصر لابد ان تكون علنية ومباشرة ، وحمل هذا الشرط روبرت اندرسون مبعوث ايزنهاور الى عبد الناصر ، ولكن عبد الناصر رفضه فورا .

وظهرت نتيجة هذا الرفض في تعليقات الصحف الامريكية .

« اختفى مشروع السد العالى من أية مناقشات فى وزارة الخارجية بعد فشل محاولة اندرسون » « مادمنا لم نستطع شراء الصلح الاسرائيلى مقابل السد فقد مات الحماس » .

« ان السبب الرئيسى لتخلينا عن السد العالى هو اننا لم نستطع تحقيق صفقة شراء الصلح العربى الاسرائيلى مقابل السد » .

وقال السناتور فولبرايت فى تقرير أعدته لجنة الشئون الخارجية للكونجرس « اثبتت الأدلة ان الحكومة الامريكية قد بدات تراجع قرارها للرجوع عنه بعد بضعة أسابيع فقط من تقديمه » .

بداية العرض السوفيتي :

كان العرض السوفيتى لبناء السد العالى ، قد قدم وكانت الاتهامات التي تنهال على مصر بأنها تناور وتضحك على المعسكرين . وقد وضع عبد الناصر حداً للشائعات بتصريحه لجريدة النيويورك تايمز فى ابريل ١٩٥٦ : بأنه اذا انقطعت المفاوضات الخاصة بالمساعدة الغربية لتمويل مشروع السد العالى ، فان مصر ستنظر بكل تأكيد فى الموافقة على العرض السوفيتى لتمويل هذا المشروع .. وان العرض السوفيتي مازال قائما وانه لايذكره بقصد التهديد أو التهويش ، واننا نرفض العرض السوفيتي وقد كان هذا العرض هاما جدا .. واستطرد الرئيس يقول : ان الدول تتهمنا باننا جلبنا روسيا الى الشرق الاوسط ، والواقع أن روسيا كانت فى الشرق الاوسط منذ زمن بعيد ، منذ أصبحت دولة عظمى بعدالحرب العالمية الثانية ، أما فى مصر فلم يعد الشيوعيون يهددوننا أى تهديد ، وتساءل الرئيس عما يمكن أن يفعله السفير الروسى فى مصر ليحولنا الى شيوعيين ثم قال : اننا وطنيون نعمل لمصر فقط»

شبيلوف فى مصر :

فى يونيو سنة ١٩٥٦ زار مصر ديمترى شيبيلوف الذى كان قد عين حديثا وزيرا لخارجية الاتحاد السوفيتى ، بصحبة ابنته ، وثلاثة من مساعديه .. كان شيبيلوف قد زار مصر قبلها بعام كصحفى فى جريدة برافدا لحضور احتفالات عيد الثورة ، وفى هذه المرة جاء كوزير لخارجية الاتحاد السوفيتى للاشتراك مع مصر فى الاحتفالات بجلاء آخر جندى بريطانى عن أرض الوطن بعد استعمار دام خمسة وسبعين عاما .

وكانت زيارة شبيلوف فرصة لاطلاق اشاعات جديدة تقول ان سبب زيارة وزير الخارجية هى أنه قادم الى مصر لتوقيع اتفاق بناء السد العالى .

وطار يوجين بلاك مدير البنك الدولى الى مصر ، لتقصى الحقائق حول هذا الامر . حضر بلاك الى مصر فى يونيو سنة ١٩٥٦ ويروى عبد الناصر بعض اسرار هذه المقابلة فى خطابه يوم ٢٦ يوليو بالاسكندرية ، وهو الخطاب الذى أعلن فيه تاميم القناة بعد أن وجد المناسبة الصالحة وهى رفض الغرب لتمويل السد وقال عبد الناصر :

« وحينما وصل يوجين بلاك ، وهو مدير البنك الدولى ، وبدأ يتكلم معى فى تمويل السد العالى ، قال اننا بنك دولى ولسنا بنكا سياسيا ، وليس لى شأن بأمريكا مطلقا ، فأنا مستقل وأقول الراى الذى أومن به .

وقلت له : كيف يكون مجلس الادارة ممثلا لدول ، ولا يكون سياسيا ، فمجلس الادارة أغلبه من الدول الغربية السائرة فى فلك أمريكا .

وابتدأت أنظر الى مستر بلاك وهو جالس على الكرسى وكنت أتخيل اننى أجلس أمام فرديناندديلسبس . (١)

وعاد بى تفكيرى الى الكلام الذى كنا نقرؤه ففى عام ١٨٥٤ ، وصل الى مصر فرديناند ديلسبس وذهب الى محمد سعيد باشا ، الخديوى ، وجلس بجانبه وقال له نريد أن نحفر قناة السويس وهذا المشروع سيفيدك فائدة لا حـد لها . فهو مشروع ضخم وسيعود على مصر بالكثير .

وعندما كان بلاك يسترسل فى كلامه معى ، كنت أحس بالعقد الموجودة فى الكلام الذى يقوله ويعود بى التفـكير الى فرديناند ديلسبس .

ثم قلت له : نحن عندنا عقدة من هذه الموضوعات ، ونحـن لانريد أن نرى كرومر فى مصر مرة ثانية ليحكمنا ، عقدوا فى الماضى قروضا ، وفوائد على القروض ، وكانت النتيجة أن احتلوا بلدنا ، فارجوك ان تـع هذا الاعتبار فى نفسك ، وفى كلامك معى ، فنحن عندنا عقدة من ديلسبس ، ومن كرومر ، عندنا عقدة من الاحتلال الاقتصادى ، هذه هى الصورة التى صورت لى .. صورة ديلسبس حينما وصل الى مصر .. وصل ديلسبس الى مصر فى ٣٠ نوفمبر عام ١٨٥٤ ، وصل الى الاسكندرية ، وبدأ يعمل فى حذر وخديعة وفى ٧ ديسمبر عام ١٨٥٤ وبعد أن اتصل ديلسبس بالخـــديوى محمد سعيد حصل على امتياز القنال ، وصدر هـــذا الامتياز الذى منحه سعيد » .

---

(١) كانت كلمة السر للاستيلاء على مقر شركة القناة عندما ينطق عبد الناصر اسم دى لسبس فى خطابه لذلك فقد كررها حتى يتأكد من ان القوة قد تحركت للاستيلاء على كل ممتلكات الشركة قبل ان ينتهى من خطابه .م.

آسف يا سعادة السفير :

وفي نفس الوقت الذى كان فيه يوجين بلاك عائدا الى بلاده طار السفير المصرى فى الولايات المتحدة الدكتور أحمد حسين الى القاهرة لمقابلة عبد الناصر .. فى يوليو ١٩٥٦ ليعرف منه حقيقة الموقف بالنسبة لبناء السد العالى .. وكان عبد الناصر فى برج العرب في رحلة استجمام قبل سفره لحضور مؤتمر دول عدم الانحياز فى بريونى (١) .

وفى برج العرب صحب عبد الناصر احمد حسين فى سيارته الى كابين بعيد الى الشاطىء وكانا وحدهما .. واخذ أحمد حسين يشرح موقف امريكا وهو موقن بأنها سوف تبنى السد العالى .. ولكن عبد الناصر كان عند رأيه بأن امريكا لن تمول بناء السد العالى .

كان احمد حسين واثقا من النوايا الامريكية الى أقصى حد بينما كان عبد الناصر متشككا فى هذه النوايا . وأخيرا حسم عبد الناصر الموقف قائلا :

ـ اذهب الى دالاس وأخبره اننا وافقنا على كل شروطه وعليه أن يقوم بتمويل السد .

ودهش السفير المصرى وهو يسمع أخيرا موافقة مصر على كل الشروط ، وعاد يسأل عبد الناصر عما اذا كان يطلب أى تعديل فى أحد الشروط ؟ ورد عبد الناصر : اننى أعطيك تفويضا كاملا .. لقد قبلت كل الشروط .. قبلت حتى أن يتجدد الالتزام الأمريكى ببناء السد كل سنة . قل لهم ذلك ، ولكن لا تفعل شيئا يمس كرامتنا .. لأن امريكا لن توافق على تمويل بناء السد ..

وطار أحمد حسين الى واشنطن .. وفى طريق العودة توقف فى لندن ، فأدلى بتصريح الى مندوبى الصحف قال فيه ان مصر تقبل

---

(١) عبد الناصر والعالم ـ محمد حسنين هيكل ..

بجميع المقترحات الغربية لبناء السد العالى وانها ترجو مساعدتها على بناء السد ، وتعتمد على هذه المساعدة وتطلبها ..

لم يكن عبد الناصر راضيا عندما سمع هـــذا التصريح من الراديو وهو فى قطاره بيوغوسلافيا فقد احس فيه ببعض الاهانة.

اما دالاس فقــد قرأ التصريح ، وايقن انه وضع فى حــرج شديد .. ولكنها فى نفس الوقت كانت فرصته لتسوية حساباته مع عبد الناصر ، وخاصة ان تقارير مخابراته ـ المخابرات الامريكية وكانت المعركة ضد عبد الناصر معركتها ـ وقد اكدت له ان تصريح السفير المصرى كان نتيجة لرفض السوفيت تمويل المشروع .

وفى نفس اللحظة التى دخل فيها أحمد حسين مبنى وزارة الخارجية الامريكية ليلتقى بدالاس ويبلغه موافقة مصر على كـــل شروط أمريكا ، فى نفس هذه اللحظة كان لنكولن هوايت المتحدث الرسمى باسم وزارة الخارجية الامريكية يصدر بيانا الى المراسلين يعلن فيه سحب العرض الامريكى بمساعدة مصر فى بناء الســد العالى .

وعندما دخل احمد حسين على دالاس وقبل ان يجلس على مقعدة سمع دالاس يقول له : سنصدر بيانا يا سعادة السفير .. اننى آسف لن نساعدكم على بناء سد اسوان .

صفعة لمصـــــر :

وقد روى « جورج الن » وكيل الخارجية الامريكية بعد ذلـــك تفاصيل هذه المقابلة قائلا : لقد قرر دالاس أن يلقن مصر درســا وان يكون هذا الدرس مدويا ومرعبا .

« دخل السفير المصرى الى مكتب دالاس وكان هناك هربرت هوفر وانا وكان السفير حسين متأمركا جدا ، وكان يرهق عبــد الناصر دائما بمكالماته التليفونية التى يحثه فيها على تأيد امريكا وبعاطفة شديدة ، قال السفير احمد حسين لدالاس : انه قلق

من العروض الروسية وما سوف تثيره وانه لابد ان تقوم الولايات المتحدة ببناء السد بأسرع وقت » .

فرد دالاس بهدوء : اننا بحثنا الامر جديا ونقدر أهميته ، ولكن بصراحة ان موقفنا الاقتصادى يجعل من المتعذر على الولايات المتحدة الاشتراك فى التمويل ونحن نسحب العرض الذى قدمناه •

كانت هذه الكلمات كما وصفها أحد الامريكيين مثل «البصقة على الوجه » •

بلاك يكذب دالاس :

وأذاعت وزارة الخارجية الامريكية مذكرة قالت فيها أنه « تبين ان مقدرة مصر على تخصيص موارد كافية لنجاح المشروع غير مؤكدة وهى أصبحت غير مؤكدة الان أكثر منها فى اى وقت مضى »•

محاولة لتشكيك الشعب المصرى فى نفسه وفى اقتصاده وقد استفز هذا الكذب حتى يوجين بلاك نفسه الذى قال : « ان دالاس لا يملك الحكم على الاقتصاد المصرى، وهذه هى مهمة البنك الدولى، وقد كلفنا أن نجيب على سؤالين محددين هما : هل المشروع ممكن ، وهل يتحمله الاقتصاد المصرى • واجاب البنك على السؤالين بالايجاب وانه ــ بلاك ــ عندما عاد من القاهرة فى يونيو ١٩٥٦ قابل بنفسه دالاس ومساعديه « وقلت لهم فى وضوح انه ليس هناك اى شك فى مقدرة الاقتصاد المصرى ، كما انه ليس هناك دليل واحد على خلل أو تدهور هذا الاقتصاد وقد كتبت خطابا بهذا المعنى للحكومة المصرية » .

هل يركع عبد النـاصر :

كانت المخابرات المركزية الامريكية قد توصلت فى تحليلاتها الى أن الاتحاد السوفيتى قد عدل نهائيا عن تمويل مشروع السد العالى واصبح عبد الناصر مضطرا لقبول اى شروط تفرضها عليه امريكا ، بعد ان قال السوفيت انهم لا يغامرون بأموالهم فى مشروع غير مضمون على حد تقارير المخابرات الامريكية •

وكان أيزنهاور يقضى عطلة فى مزرعته فى جتسبرج عندما طلبه دالاس بالتليفون وقال له : ان الحكومة المصرية قد بلغته انها تقبل كل شروط الغرب لتمويل السد كما هى وأنه ــ أى دالاس ــ « يعتقد أن السبب فى ذلك هو أن عبد الناصر قد طلب الى روسيا تمويل السد ، ولكن روسيا رفضت ، ولهذا عاد عبد الناصر الى الغرب وقبل كل الشروط ، واضاف دالاس بأنه أنذر المصريين بأن أمريكا لم تعد فى الموقف الذى يسمح لها بالمضى فى المشروع بسبب معارضة الكونجرس ، ولسبب تغيير الرأى العام فى أمريكا ..

فأجاب أيزنهاور : (١)

ــ أى شىء تراه يا فوستر .. أى شىء تراه ..

دالاس الانسان :

كانت تقارير المخابرات الامريكية وراء رفض دالاس ، فقد صورت الامر على ان عبد الناصر سوف يسقط ، وان الروس انسحبوا من بناء السد ، وسوف يكشف موقفه تماما .. وعندما وقف دالاس أمام الكونجرس يبرر رفض أمريكا تمويل السد العالى كانت لديه أسباب انسانية بحتة .. أسباب عجيبة فقد قال : لقد وجدنا أن نصيب مصر فى المشروع بالعملة المحلية يشكل عبئا لا طاقة لمصر على احتماله ، وكان هذا العبء يتطلب تقشفا كاملا لمدة بين اثنتى عشرة أو خمس عشرة سنة ووجدنا ان هذا سوف يكون شيئا لا يحتمله ، ولا يقوى الشعب على احتماله واذا حدث فسوف يلقى الشعب المصرى كل المسئولية علينا نحن ، وبدلا من أن يحبوننا فانهم سوف يكرهوننا » .

الاعتراف بالصين :

كان تفسيرا غريبا ، ويبدو انه وجد أن هذا التفسير غيرمقنع فأعلن فى مؤتمر صحفى عن سبب آخر لرفض الغرب تمويل مشروع السد العالى فقال : لقد اعترف المصريون بالصين الشعبية قبل أيام

---

(١) ميلاد ثورة ــ الجزء الاول ١٨٠ .

من طلبهم ردا محددا على تمويل السد ، وكانوا أول دولة عربية تفعل هذا ، وقد ارغمونا على مواجهة اختيار لم يكن لدينا سوى رد واحد عليه وهو : هل الدول التى تلعب على كلا الجانبين تحصل على معاملة أفضل من الدول التى تقف معنا ، وتعمل فى صفنا بصلابة ، ان حلفاءنا الأوفياء الثابتين يراقبون بعناية ليروا ماذا يكون جوابنا وبين هؤلاء الحلفاء حلفاء عرب فى بلاد مجاورة .

تأميم القناة :

هكذا رفض الغرب تمويل مشروع السد العالى – بناء على تقارير المخابرات الأمريكية – وكان رد عبد الناصر جاهزا .. كان عبدالناصر قد كون لجنة منذ الشهور الأولى للثورة لدراسة مستقبل قناة السويس ، وتقول وثائق قناة السويس المؤممة ان وفدا برئاسة « سابا حبشى باشا » قد التقى بجميع المسئولين المصريين بعد الثورة لاقناعهم بمد فترة امتياز شركة قناة السويس العالمية الذى كان مقررا ان ينتهى سنة ١٩٦٨ ، وان اللجنة عندما التقت بجمال عبد الناصر كان هو المسئول الوحيد الذى سمع وجهة نظر الاعضاء واستفسر منهم فى أمور عديدة حول القناة ولكنه لم يبد رايه .

ويقول الدكتور مصطفى الحفناوى انه دعى لالقاء محاضرة فى نادى ضباط الجيش فى شهر نوفمبر سنة ١٩٥٢ ، وكانت المحاضرة حول قناة السويس وانه فى نهاية المحاضرة وقف جميع الضباط الذين استمعوا اليه يرددون خلف جمال عبد الناصر قسما بأنهم سيعملون على أن تسترد مصر حقها فى قناة السويس عن طريق تاميمها (١) .

كانت الدراسات عن تاميم قناة السويس معدة ولكنها تنتظر التوقيت المناسب ، وقد أعطى رد الغرب برفض تمويل بناء السد

(١) كتاب حكايات عبد الناصر – للمؤلف ..

العالى لعبد الناصر هذا الوقت المناسب . ويقول جمال عبد الناصر فى حديث له عندما سأله مندوب مجلة « لوك الامريكية » فى ١٤ يونيو ١٩٥٧ : « هل كنتم ستستولون على القناة حتى لو ظلت عروض الولايات المتحدة وبريطانيا بمساعدتكم فى بناء السد العالى قائمة ؟ » وكان رد عبد الناصر « لقد كنا ندرس مسألة تأميم القناة ولكننا لم نكن قد توصلنا الى قرار فجعلتمونا انتم نستقر على القرار » .

وقف عبد الناصر فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ ليضع امام جماهير الشعب العربى قصة السد العالى كاملة والشروط التى حاول الغرب أن يفرضها لبناء السد وكيف انتهت الدول الغربية الى قرارها برفض بناء سد أسوان العالى وفى نهاية خطابه أعلن عبد الناصر تأميم شركة قناة السويس العالمية وتحويلها الى شركة مصرية .

كان ايدن يقيم حفل عشاء للملك فيصل الثانى ملك العراق ومعه رئيس وزرائه نورى السعيد ، عندما دخل عليه أحد الحراس يضع امامه ورقة صغيرة تحمل خمس كلمات **« لقد أمم عبد الناصر قناة السويس »** .

وقف ايدن منفعلا .. بينما يقول له نورى السعيد : « اسحقه الآن وبلا تردد .. اسحقه وبلا رحمة » .

دعا ايدن الى اجتماع لمجلس الوزراء البريطانى لبحث مسألة « من أخطر المسائل التى واجهت بريطانيا بعد الحرب العالمية الثانية » .

وفى صباح اليوم التالى أرسل ايدن رسالة مطولة الى أيزنهاور يقول فيها :

«آن الأوان لموقف حاسم ونهائى من مصر ، ان نفوذكم ونفوذنا سوف يضيع بلا رجعة فى الشرق الاوسط اذا لم نحسم كل شىء ، ويجب الا نسمح لانفسنا بأن نستغرق فى الحجج القانونية حول حق حكومة مصر فى التأميم او عدمه ، وحول مقدرة المصريين المالية

أولا ، فان الامر أخطر من هذا ، وانا وزملائى فى الحكومة مقتنعون تماما بأننا يجب أن نكون مستعدين آخر الأمر لاستعمال القوة لكى نعيد عبد الناصر الى رشده ، ونحن مستعدون لهذا ، وقد اصدرت تعليماتى هذا الصباح الى رؤساء أركان الحرب لاعداد خطةعسكرية للعمل فورا ، وعلى بريطانيا وفرنسا والولايات المتحـــدة تنسيق مواقفهـــا » .

كان دالاس يوم تأميم القناة يزور أمريكا اللاتينية فى مدينة ليمـا عاصمة بيرو وقرر أيزنهاور أن يستدعى دالاس من أمريكا الجنوبية ليذهب فورا الى لندن .

دالاس والعـدوان الثلاثى :

فى أول اغسطس سنة ١٠٥٦ أعلن دالاس لايدن وبينو ، رأيه واضحا . كان الثلاثة يعقدون اجتماعا فى لندن لاتخاذ موقف فى مواجهة جمال عبد الناصر وقال دالاس « لابد أن نجد طريقا نجعل عبد الناصر يتقيأ ما حاول التهامه ، ولابد أن نقوم بجهد حقيقى لكى يؤيد الرأى العام العالمى اقامة ادارة دولية للقناة ، ولابد أن نخلق رايا عاما دوليا مضادا لناصر ، لكى يمكن عزله ، وحينئذ اذا ماتقرر القيام بعملية عسكرية فان نجاحها يكون مضمونا ومضاعفاتها تكون أقل مما لو تمت على الفور » .

أكد دالاس لايدن بأنه معاد لعبد النـاصر . وقال ايدن فى مذكراته: « تشجعنا بتصريحات دالاس وآرائه ، وكان متفقا معنا فى أن الاستيلاء على هذا الممر الدولى الهام أمر لايمكن السماح به لمصر، وخاصة ان عبد الناصر لا بد أن يتقيأ ، أو لا بد أن يرغم على أن يتقيأ كما قال دالاس ـ وكانت هذه كلمات صريحة مباشرة وقد ظلت ترن فى أذنى لأشهر طويلة » .

أكد ايدن وبينو لدالاس بنفس الـكلمات الصريحة : « ان بريطانيا وفرنسا مصممتان على استرداد القناة بالقـــوة ، الا اذا تراجع ناصر واستسلم تماما ، والمشكلة الحقيقية هى ناصر وليست القناة ، أن بريطانيا سوف تنتهى تماما اذا ما سمح لناصر أن يفوز بالقناة ، وأن مركز فرنسا فى شمال أفريقيا كله انما يعتمد على

هذه القضية ، واذا ما نجح فان الجزائريين ســوف يتشجعون ، وسوف يحصلون على تأييد ، وعلى اسلحة اكثر من مصر ، وسوف يدمرون الوجود الفرنسى » .

عاد دالاس الى واشنطن ليصرح بقوله : « ان الاعمال العسكرية ليست بعيدة الوقوع ، واذا ما بدات فمن الصعب التكهن بما اذا كان يمكن حصرها او أن تتسع » . ويقول ايدن في مذكراته: « اننى لم أخف شيئا على دالاس وقلت له : ان الملحق البحـرى الامريكى يطلب معلومات عن استعداداتنا العســكرية ، ونحن لا نمانع فى اعطائه كل المعلومات ، ولكن أريد أن أتيقن أن الولايات المتحــدة تريد هذه المعلومات لشيء جدى. وأجاب دالاس : ان الولايات المتحدة تتفهم تماما الهدف من استعداداتنا العسكرية ، وانها تعتقد انها ذات أثر فعال ، وان كان من الأفضل الا تحصل الولايات المتحدة على معلومات مفصلة » .

لقد كان الهدف واضحا وهو أنه لابد ان يتحطم عبد الناصر ، ولابد ان تتحطم القوة العسكرية التى يستند اليها ، ولابد من تحطيم سلاح الجو المصرى ، ولابد من القضاء على الجيش المصرى نهائيا.. كانت هذه هى الخطة التى استقر الرأى عليها فى اجتماع عسكرى عقد فى وزارة الحرب البريطانية ، حضره مائتان من كبار الضباط لكل الأسلحة برئاسة اللورد مانتاباتن لاقرار الخطة النهائية للعمل.

وضعت خطة الغزو ، وكان الهدف واضحا أن يسترد الغرب القناة ، وان ينتهى عبد الناصر ،واشركت اسرائيل فى الحرب .وكان العدوان الثلاثى على مصر فى سنة ١٩٥٦ . ولم يتحقق الهدف .. لم يسترد الغرب القناة التى اصبحت مصرية ..ولم يتحطم عبد الناصر ، ولكنه اصبح بطلا عربيا ورمزا للمقاومة الصــلبة ، لقوى القهر والاستعمار والعدوان ، التى عانى منها الشعب العربى طويلا .. وانتصر الشعب المصرى .. استرد قناته ودافع عنها . ولم يقبل عودتها للأجنبى .. دولة اجنبية داخل الدولة .. وخرج مارد القومية العربية الى الوجــود قويا هادرا مــن النابــع الى

المحيط مع ناصر .. واصبحت حرب السويس فاصلا بين عصرين في العالم كله ..

اغتيــال عبد النــاصر :

وهزمت المخابرات الامريكية في معركة بناء السـد العـالي ووصل ضيق أمريكا بعبد النـاصر في ذلك الوقت الى حـد ان دالاس دبر مؤامرة لاغتياله فقد كانوا يريدون التخلص منه عن أي طريق وهذا ما كشفته المخابرات الامريكية أخيرا في نبأ نشر في أمريكا ، ونقلته وكالات الانباء الغربية ونشرته صحفنا المصرية في صفحاتها الاولى ــ فيما عدا جريدة الاخبار المصرية ــ التي امتنعت عن نشره رغم أن الصحف الامريكية نشرته ، وان كانت الاخبار قد انفردت دون سائر الصحف المصرية بنشر نفي للخبر في اليـوم التالي ــ وكأنما جاء هذا النفي لها وحدها ، ونحن ننقل النبـأ كما نشرته جريدة الاهرام « ١٢ فبراير ١٩٧٦ » بالنص « أعلن اليوم في واشـنطن ان المخـابرات المركزية الامريكية قد شـكلت في منتصف الخمسينات ثلاث مجموعات لاغتيال الزعيم الراحـل جمال عبد الناصر ولكنها فشلت جميعا .. وقد نشرت صحيفة « واشنطن نيوز وورلد » في اول اعـدادها الذي صـدر اليوم في العاصمة الأمريكيـة هـذا النبأ على لسان جون ماركس الذي ظل عميلا للمخابرات المركزية الامريكية لمدة عشرين عاما .

وقال جون ماركس في اعترافاته للصحيفة ان فكرة اغتيال عبد الناصر قد ظهرت خلال حكم الرئيس ايزنهاور ووزير خارجيته جون فوستر دالاس ، وذلك أثناء محادثة بين وزير الخارجيـة الامريكي وبين شقيقه آلن دالاس رئيس جهاز المخابرات المركزية الامريكية ، الذي كان يشكو من المتاعب التي يسببها عبد النـاصر للمخابرات الأمريكية في منطقة الشرق الاوسط في أعقاب تأميـم قناة السويس في يوليو عام ١٩٥٦ .

وذكر ماركس أن وزير الخارجية الامريكي قد رد على شقيقه قائلا : ان على المخابرات الامريكية (أن تصفي هذه المشكلة) وبعدها

تم تشكيل هذه المجموعات الثلاث لاغتيال عبد الناصر ، وأضاف ماركس أن هذه المجموعات قد شكلت من بعض العـــرب الذين يتعاملون مع وكالة المخابرات الامريكية ، وان احدى هذه المجموعات قد تم القبض عليها بالفعل أثناء محاولتها دخول مصر ، والمجموعة الثانية لم تنفذ خطتها ، وأما المجموعة الثالثة فلم يعرف عنهـا أى شيء ، وجدير بالذكر أن جون ماركس كان قد ألف أخيرا كتابا تضمن الأسرار التى عرفها بحكم عمله الطويل كعميل لوكالة المخـابرات المركزية الامريكية ولكن الوكالة تمكنت بحكم قضائى من مصادرة هذا الكتاب » .

وانتصرت مصـــر :

هكذا كانت معركة السد العالى مـن اعنف المعـارك التى خاضهـا الشعب المصرى فى مواجهة الاســتعمار ، وخاض من اجلها حربا سـالت فيها دماء الالاف ، وانتصر .. أسترد قناته وبدأ يستعد لبناء السد العالى .

ومن هنا كانت الحملة الضارية على الســد العـالى الآن ، فالقوى التى هزمت فى هذه المعركة تريد ان تنتقم ، وتشوه الانجاز الذى حاربته فغلبها .. وصارعته فصرعها ..

ولعل الذين يهاجمون الســد العالى حسن نية يعرفون ذلك ، ويعرفون ان الدول التى رفضت تمويل السد لم يكن رفضها لعيب فى المشروع ذاته ، ولكن خطتها كانت احتواء عبد الناصر فى مقابل تمول المشروع الذى تأكد للغرب أنه يســـنقذ مصر من مجاعة ، وان عبد الناصر قد يضطر للخضوع فى مقابل اتمام بناء هــذا الصرح العظيم ، ولم يخضع عبد الناصر وانما خاض مع الشعب المصرى حربا استخدمت فيها كل الاسلحة ، وانتصر وتقرر ان يقام السد واقيم فعلا .. وكان لابد لقوى معينة ان تشوه هـذا العملاق وان تطالب بهدمه وتنسب اليه عيوبا وتكتشف فيه اخطاء ، وبالرغم من راى الخبراء العالميين وفى مقدمتهم الخبراء الامريكيون انفسهم ..

ضوء فى المجتمع :

ان الذين يهاجمون السد العالى ينسون ، او يتناسون ان مئات القرى وصلتها الكهرباء ، ومئات القرى تنتظر الكهرباء ..

هذه الكهرباء هى كهرباء السد العالى ، التى سوف تمتد لتضىء كل قرى مصر ، وتحدث تحولا جذريا حضاريا ، واقتصاديا واجتماعيا فى القرية المصرية ..

هذه هى احدى ثمار السد العالى ..

وآلاف الافدنه التى تستصلح .. ما كان لها ان تنبت الا بمياه السد العالى ..

وآلاف الافدنة التى تحولت الى الرى الدائم تروى بمياه السد العالى .

ومئات المصانع التى اقيمت والتى ستقام تدور محركاتها بكهرباء السد العالى ..

وخبرة مهندسينا ، وفنيينا وعمالنا فى بناء السدود كانت وليدة المعركة الجبارة التى خاضوها وهم يبنون هذا الصرح ..

لقد اصبح السد العالى هرما جديدا يرمز الى الحياة ، يفد اليه الناس من كل بقاع العالم لا ليشهدوا فقط هذا البناء الهندسى .. ولكن ايضا لان هذا السد قد اصبح رمزا خالدا لنضال الشعب المصرى ..

وبالرغم من كل ذلك وغيره الكثير - وبالرغم من ان زوجة الرئيس كارتر صاحت بعد زيارة السد العالى قائلة : « انه شىء مذهل وعظيم » - ستظل هناك فئة تهاجم السد العالى لانه من اعظم انجازات عبد الناصر ، ومن اخلد معاركه ، ولا بد من ضربها وتشويهها ...

لقد كانت معركة بناء السد العالى معركة ضد المخابرات الامريكية .. وانتصر فيها الشعب المصرى .. بقيادة جمال عبد الناصر ...

هذا الكتاب

تعرضت الفترة الناصرية فى مصر الى حملة مكثفة ، تهدف الى تشويهها وعدم كل انجازاتها .. وهذا الكتاب محاولة موضوعية لدراسة بعض جوانب التجربة بسلبياتها ، وايجابيانها .. وهو يرد على بعض الحملات المغرضة ، ويتعرض للاسرار السياسية أثناء مرحلة بناء السد العالى ، والمعارك التى خاضتها المخابرات الامريكية ضد عبد الناصر فى تلك الفترة ، كما يتعرض لمختلف الآراء ، والابحاث ، والدراسات الفنية حول هذا المشروع الكبير .. والكتاب واحد من سلسلة دراسات عكف المؤلف على اعدادها لتصدر تباعا تحت عنوان « ملف عبد الناصر » .

UCC
المركز الثقافى الجامعى

Bibliotheca Alexandrina
0678476
53
m

الثمن ٦٠ قرشـــا